أسلوب إذ

في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية

تأليف
الدكتور عبد العال سالم مكرم
أستاذ النحو العربي
بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة

أسلوب إذ

في ضوء

الدراسات القرآنية والنحوية

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

أسلوب إذ

في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية

تأليف
الدكتور
عبد العال سالم مكرم
الأستاذ بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات البحث

المحتوى	
تقديم	٧
أ ــ إذْ الاسمية.	١٠
ــ لزوم بنائها.	١٠
ــ لزومها الظرفية.	١٧
ــ وقوعها مفعولاً به.	١٩
ــ دراسة تطبيقية لأسلوب إذْ في القرآن الكريم.	٢٢
ــ دلالة إذْ على المستقبل (خلاف نحوى) .	٢٤
ــ إذ الظرفية مضافة إلى الجمل .	٢٦
ب ــ إذْ بين الاسمية والحرفيّة :	٢٩
ــ إذْ التعليلية.	٢٩
ــ إذْ الفجائية.	٣٥
ــ وقوع إذْ الفجائية جوابا لـ «بينا و بينما»	٣٨
ــ إذْ الزائدة.	٤٥
ــ نقد رأى أبي عبيدة.	٤٧
ــ قضية الزيادة في القرآن الكريم.	٥٥
ــ جرّ إذْ بالإضافة بعد (بَعد).	٦٢
ــ دخول إذْ على الشرط وإلغاء أسلوبه.	٦٣

ج ــ بين إذ الظرفية وإنْ الشرطية.	٦٥
ــ رأى البصريين والكوفيين.	٦٦
ــ رأى الإمام الرضّى.	٦٩
ــ رأى ابن هشام .	٧٠
ــ رأى ومناقشة.	٧٠
ــ رأى المفسّرين .	٧١
ــ رأيي في هذه القضية .	٧٨
د ــ إذ الحرفية .	٨١
ــ رأى سيبويه في الجزم بـ «إذ ما».	٨٢
ــ نقد رأيه.	٨٢
ــ نقد النقد .	٨٢
ــ الهوامش .	٨٧
ــ المصادر والمراجع .	٩٩

تقديم :

تتكرر إذْ في كثير من النصوص الأدبية نثراً كانت أو شعراً، ولا تكاد تخلو فقرة في كلام عربي من هذه الأداة.

ومع كثرة الاستعمال نجد أن معانيها تحتاج إلى تحديد، لأنه قد تصعب التفرقة بين هذه المعاني لاختلاطها بعضها ببعض. ومن أجل ذلك كانت هذه الدراسة، لإلقاء الضوء الكاشف على معاني هذه الأداة لتحديد الدلالة، وتوضيح القصد، وبيان الغرض.

ويبدو أن معاني الأدوات الأسلوبيّة، وصعوبة رسم الخطوط الدقيقة بين معنى ومعنًى، وبين أسلوب وأسلوب هي التي حملت رجال اللغة والنحو على بسط الحديث عنها لكشف معانيها، وتحديد دلالتها.

وعلى الرغم من أنه لا يخلو كتاب نحويّ أو لغويّ من هذه الأدوات منذ أن ألف سيبويه كتابه فإن بعض النحويين أفردوا لهذه الأدوات كتباً مستقلّة، نذكر منها :

أ ـ كتاب : «الأُزهيّة في علم الحروف» لعليّ بن محمد النحويّ الهرويّ المتوفى عام ٤١٥هـ .

ب ـــ كتاب : «رصف المباني في شرح حروف المعاني» لأحمد بن عبدالقادر المالقيّ المتوفى عام ٧٠٢هـ .
حـ ـــ كتاب : «الجنى الداني» في حروف المعاني» للحسن بن قاسم المراديّ المتوفى عام ٧٤٩هـ .
د ـــ كتاب : «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لجمال الدين بن هشام الأنصاري المتوفى عام ٧٦١هـ .

أمّا الهرويّ صاحب: «الأزهية» فإنه يذكر في مقدمة كتابه : أنه جمع هذه الأدوات منفصلة عن أبواب النحو في كتاب مستقل من أجل أن تستوعب معانيها، يقول :

«سألتني ـــ أيدك الله ـــ أن أجمع لك أبواباً من النحو قد ذكرناها متفرقة في كتابنا المّلقب بالذخائر، ليسهل عليك حفظها وقراءتها، وقد فعلت ذلك على ما التمست مع زيادات زدتها في هذا الكتاب»(١).

وأمّا المالقيّ فإنه يذكر في مقدمة كتابه أنه لمّا «كانت الحروف أكثر دوراً، ومعاني معظمها أشدّ غَمْراً، وتركيب أكثر الكلام عليها، ورجوعه في فوائده إليها، اقتضى ماخطر من النظر أن أبحث على معانيها، وأطالع غرض الواضعين فيها، فوجدت منهم من أغفل بعضها وأهمل، ومن تسامح في الشرح وتسّهل، ومن اختصر منها وأسهب، ومن ركّب البسيط، وبسّط المركب، ومن شتّت ألفاظها وعدّد، وطال الكلام لغير فائدة وردّد.

فدعاني الغرض الخاطر، والرفيق العابر أن أؤلف فيها كتاباً يشتمل على شرحها وإيضاح ماخفي من بَرْحها (٢) ليشتفي صدر الناظر فيه على المأمول، و يفيده ـــ أن شاء الله ـــ إن أخذه بالقبول»(٣).

وأمّا ابن قاسم المراديّ فانه يذكر في مقدّمة كتابه مانصّه: «فإنه لما كان مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنّياً أكثرها على معاني حروفه، صُرِفَتْ

الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها، وهي مع قلّتها، وتيسُّر الوقوف على جملتها قد كثر دَوْرُها، و بَعُد غورها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبَتْ الاذعان إلاّ لمَن يعانيها»(٤).

وأمّا ابن هشام فإنه يذكر في مقدمة كتابه : أنه وضع هذا المؤلف مُحْكماً متقناً كشف فيه المعضلات، و بينّ الأغلاط. يقول :

«أستأنفت العمل لاكسلاً ولامتوانياً، ووضعت هذا التّصنيف على أحسن إحكام وترصيف، وتتبّعت فيه مقفلات مسائل الإعراب فافتتحتها، ومعضلات يستشكلها الطّلاّب فأوضحتها ونقحتها، وأغلاطاً وقعت لجماعة من المعربين وغيرها فنبهتهم عليها، وأصلحتها.

فدونك كتاباً تُشَدّ الرّحال فيما دونه، وتقف عنده فحول الرجال ولايعدونه، إذ كان الوضع في هذا الغرض لم تسمح قريحة بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله»(٥).

وإذا كانت دراسة الأدوات شغلت أذهان النحويين واللغويين لتحديد معالمها ورسم الخطوط الدقيقة لمعانيها، فإنّ الأداة: «إذْ» نالت نصيباً كبيراً من دراسة النحويّين، لتعددّ دلالتها، واختلاف معانيها، وتنوّع أساليبها.

وهدفي من هذه الدّراسة هو عرض معاني هذه الأداة في ضوء الأساليب العربيّة، وعلى هدْى المعاني النحويّة، ليتبيّن لنا من خلال البحث والدراسة أن نضع أيدينا على أساليبها المتعدّدة وطريقة استعمال كل أسلوب. وهذا من دون شك يساعدنا على أن نقف على أسرار الأساليب التي اشتملت عليها، واستيعاب المعاني التي تعدّدت في مجالها، و بذلك نضع النّقاط على الحروف في قضّية تحتاج إلى بحث جادّ، لأنها على حد تعبير المرادي: عزّت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعانَ إلاّ لمن يُعانيها.

إذْ الاسمّية

تقع إذ في بعض الأساليب العربيّة اسماً، وفى هذه الحالة، تحمل معنى الظرفية وتقع حرفاً لتحمل معانى أخرى ستتضح لنا عند التعّرض لدراستها، ونتناول أولاً إذْ الاسمية، فإذا فرغنا منها نتناول بالبحث والدراسة إذْ بين الحرفيّة والاسمّية ثم إذْ الحرفّية.

أوّلاً : إذْ الاسميّة :

يذكر النحو يون أن إذْ الاسميّة هي إذْ الظرفيّة، ويحتجّون لاسمّيتها: أنها تقبل التنو ين مثل: يومئذٍ، وحينئذٍ، وقبولها التنو ين دليل الاسمّية. وممّا يؤكد اسّميتها أنها تقع خبراً حينما تقول: إخلاصك إذ بدأ العمل، فـ «إذْ» في هذا المثال ظرف يعرب خبراً للمبتدأ: «إخلاصك».

و يضيف النحّو يون دليلاً ثالثاً على اسمّيتها، وهو الإضافة إليها كقوله تعالى: «بعد إذْ هديتنا»(٦)، وذلك لأن إذْ مضافة إلى الجملة الفعلية وهى: «هديتنا» والإضافة من خصائص الأسماء.

يقول السّيوطى مستدلاً على اسمية إذْ مانصّه: «والدليل على اسميتها قبولها: التّنو ين، والاخبار بها، نحو: مجيئك إذ جاء زيد، والإضافة إليها بلا تأو يل نحو: «بعد إذ هديتنا»(٧).

و ينصّ صاحب الجّنى الدآنى على اسمّيتها بدليل رابع يضيفه إلى الأدلة السّابقة وهو: «إبدالها من الاسم نحو: رأيتك أمس إذ جئت»(٨)، فـ«إذْ» في هذا بدل من «أمس»، والبدل يتبع المبدل منه.

لزوم بنائها :

وإذْ التي تحمل معنى الاسمّية أو الظرفيّة مبنّية على السّكون، ودليل بنائها مايأتي :

أ ــ وضعها على حرفين .

ب ــ افتقارها إلى الجمل التي بعدها .
جـ ــ افتقارها إلى التنوين المسّمى : تنوين العوض الذي يقوم مقام الجملة مثل:(٩) يومئذٍ، حينئذٍ.

و يضيف ابن يعيش على هذه الأدلّة أدلّة أخرى ساقها ليقرّر في ضوئها بناء إذْ ، وهى في الحقيقة أدلة منطقية تقوم على التعليل، ومنهج التحليل. يقول ابن يعيش :

«فأماّ إذْ فإنها تقع على الأزمنة الماضية كلها، مبهمة لااختصاص لها ببعضها دون بعض، فاحتاجت لذلك إلى مايوضّحها. و يكشف عن معناها، وإيضاحها يكون بجملة بعدها، فصارت بمنزلة بعض الاسم، وضارعت «الذي» والأسماء الناقصة المحتاجة إلى الصّلات، لأن الأسماء موضوعة للدلالة على المسّميات، والتمييز بين بعضها و بعض، فإذا وجد منها مايتوقف معناه على مابعده حلّ مع مابعده من تمامه محل الاسم الواحد، وصار هو بنفسه بمنزلة بعض الاسم، و بعض الاسم مبنى، لأن بعض الاسم لايوضع للدّلالة على المعنى»(١٠).

و بهذا التحليل القوىّ أكّد ابن يعيش بناء إذْ.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن حول بناء إذْ هو: لماذا كسرت الذّال عند تنوين العوض القائم مقام الجملة؟

وذلك إذا قلنا : حينئذٍ، و يومئذٍ، لابدّ من كسر الذّال، فما السّر في كسر هذه الذال؟

جمهور النحويين يجيبون عن هذا التساؤل فيقولون : «وإنما كسرت الذّال لالتقاء السّاكنين»(١١).

ولتفسير رأى جمهور النحويين نقول: السّاكنان هما: سكون ذال «إذْ»، وسكون التنوين، فتُخِلّص من التقاء السّاكنين بكسر الذّال.

ومع هذا التفسير الواضح لكسر ذال إذْ عند الجمهور، فإن الأخفش له رأى آخر، فما رأيه؟ ذلك هو ماسنعرضه في النقطة التالية : ــ

رأى الأخفش :

لم يرتض الأخفش هذا التعليل السّابق لجمهور النحويين، لأنه يرى أن كسرة إذْ ليست للتخلّص من التقاء السّاكنين، وإنما هي كسرة إعراب. ودليله في هذا الرأى أن: «إذْ إنما بنيت لإضافتها إلى الجملة، فلّما حذفت الجملة عاد إليها الإعراب فجرّت بالإضافة»(١٢).

ومعنى ذلك: أن إذْ بنيت لافتقارها إلى جملة تضاف إليها وهذا هو علة بناء إذْ عند الأخفش وغيره، فإذا ماحذف المضاف إليه، وهو الجملة وعوّض عنها التنوين، رجع الإعراب إلى إذْ ، فهى مجرورة في المثالين: يومئذٍ وحينئذٍ بإضافة يوم إليها، والمضاف إليه معرب مجرور، ذلك هو فحْوى رأيه، وملخّص مذهبه. وهذا الرأى أو المذهب يحتاج إلى نقاش، وذلك ماسنتناوله في النقطة التالية :

مناقشة رأى الأخفش :

يبدو فى رأى الأخفش لأول وهلة، وجاهة التعليل، وقوّة الدليل، ولكن يحدّ من وجاهة التعليل، و يضعف من قوة التدليل هو أن سبب بناء إذْ في رأيه هو الإضافة إلى الجملة، والإضافة إلى الجملة ليست هي السبب الفّعال في بناء إذْ، فهناك أسباب أخرى للبناء سبق الحديث عنها كوضعها على حرفين، ولكونها ضارعت الأسماء الناقصة مثل الذّى كما تحدث ابن يعيش فيما سبق.

وقد قررنا سابقاً أن من أسباب بناء إذْ هو الافتقار إلى الجملة أى الحاجة إليها ليكمل معناها، وتتضح دلالتها كحاجة الموصول إلى الصلة وفرق بين الإضافة والافتقار، لأن كثيراً من الظروف معربة حالة الإضافة فلو كانت الإضافة هي السبب لبنيت هذه الظروف، فلو قلنا مثلاً :

سافرت يوم الخميس، فـ «يوم» ظرف معرب منصوب بالفتحة، وليس مبنياً بسبب الإضافة.

لهذا فإن المراديّ كان على حقّ في ردّه على الأخفش بقوله :

«إن سبب بنائها ليس هو الإضافة إلى الجملة، وإنما هو افتقارها إلى الجملة، والافتقار عند حذف الجملة أبلغ، فالبناء حينئذ أولى»(١٣) وردّ المرادي يحتاج إلى ايضاح بالنسبة للقارىء غير المتخصص حتى يعم الانتفاع بهذا البحث في أسلوب نحن في أشد الحاجة إلى معرفته، وكشف معانيه وذلك لتكراره في فن الكتابة، وفنّ القول معاً، كما سبقت الإشارة الى ذلك.

يدور رأى المرادى في البناء حول الافتقار، وإذْ لأنها من الظروف المبهمة تحتاج إلى إيضاح يوضح هذا الابهام، ويحدّ من غموضه. ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى جملة تليها، لتكشف عن إبهامها، وكان سبب الافتقار إلى الجملة التى بعدها هو سبب البناء، فعند حذف الجملة، والتعويض عنها بتنوين العوض، رجع إليها الغموض مرة أخرى، وان كان في هذه الحالة أقل لقيام التنوين مقام الجملة، ولهذا فإنها في حالة افتقارها إلى الجملة بُنِيتْ، وزاد الافتقار أكثر عند حذف الجملة، فكان البناء أوْلى، لأن الافتقار إلى الجملة عند عدم وجودها أبلغ من الافتقار إلى الجملة حالة وجودها.

وردّ المراديّ في الواقع على الأخفش ردّ فلسفيّ منطقيّ.

وإذا كان الأخفش لايذعن لهذا الردّ مع أنه سلك مسلك الفلسفة والمنطق في رأيه حيث قررّ أن من أسباب البناء الإضافة إلى الجملة فإذا مازالت الإضافة زال البناء، وكان ردّ المرادى من جنس ماذهب إليه الأخفش حيث التزم مثله مسلك الفلسفة والمنطق ــ فإن هناك أدلة أخرى تقوم على السّماع والرواية بعيدة عن منطق الفلسفة والتعليل.

من هذهالأدلة : قول أبي ذؤيب الهذليّ :

نهيتُكِ عن طِلابك أمَّ عمرو بعاقبةٍ وأنت إذٍ صحيحُ(١٤)

وموطن الاستشهاد بهذا البيت هو كسر ذال: إذْ مع التنوين،

ولاموجب للكسر غير التقاء الساكنين، فليس لـ «إذْ» مضاف تضاف إليه، وتجرّ بسببه بالكسر كما كانت شبهة ذلك محققة في يومئذٍ، وحينئذٍ، لوجود المضاف فيهما وهو يوم، وحين.

ومن هذه الأدلة أيضاً في الرّد على الأخفش ونقده هذا التحليل الرائع الذي ذكره ابن جنى في معرض ردّه على الأخفش، وتعليقه على كسر «إذِ» في البيت السابق، وهو تحليل يحمل في طيآته قوة الدليل، ووضوح الحجة، وسلامة البرهان يقول ابن جنيّ:

«ومن وجوه التنوين أن يلحق عوضاً من الإضافة نحو: يومئذ، وليلتئذ، وساعتئذ، وحينئذ، وكذلك قول الشاعر:

* وأنْتِ إذٍ صَحِيحُ *

ألا ترى أن «إذ» ليس قبلها شيء، فأما قول أبي الحسن — [يعنى الأخفش] — : إنه جرّ «إذ» لأنه أراد قبلها: «حين» ثم حذفها، وبقّى الجر فساقط، الأ ترى أن الجماعة قد أجمعت على أن: إذْ، وكمْ، ومَنْ من الأسماء المبنيّة على الوقف.

وقد قال أبوالحسن نفسه — من بعض التعاليق عنه في حاشية الكتاب: بَعْد كمْ، وإذْ من التمكن أن الاعراب لم يدخلها قط، فهذا تصريح منه ببناء إذْ، وهو اللائق به، والأشبه باعتقاده، وذلك القول الذي حكيناه عنه شيء قاله في كتابه الموسوم بمعانى القرآن، وإنما هو شبيه بالسهو منه»(١٥).

ولم يكتف ابن جنى بهذا التحليل الرائع في استدلاله على بناء «إذْ» بل ذهب يلتمس الدليل تلو الدليل، ليقوى رأيه، و يدافع عن فكره حتى يبلغ مايريد. يقول ابن جنى: «و يؤيد ماذكرته من بناء إذْ أنها إذا أضيفت مبنية نحو قوله: «إذِ ٱلْأَغْلَالُ فى أَعْنَاقِهِمْ»(١٦)، «وإذْ يَرفَعُ إبْراهِيمُ القَواعِدَ من

البيت(١٧) فـ «إذْ» في هذا ونحوه مضافة إلى الجمل، وموضعها نصب، وهي كما ترى مبنيّة.

فإذا كانت في حال إضافتها إلى الجمل مبنيّة من حيث كانت الإضافة أن تقع على الإفراد فهي اذا لم تضف في اللفظ أصلاً أجدرُ باستحقاق البناء. و يزيدك وضوحاً قراءة الكسائيّ: «من عذاب يَوْمَئِذٍ»،(١٨) فبنى على الفتح لما أضافه إلى غير متمكن».

ويختم ابن جنيّ أدلّته بدليل يردّ به سؤال معترض على بناء إذْ لتوهّم قام في نفسه، وفهم خاطىء استبد بعقله، فيقول:

«فإن قيل: بنيت إذْ من حيث كانت غاية منقطعاً منها ماأضيفت إليه أو من حيث إضافتها إلى جملة تجرى الإضافة إليها مجرى لا أضافة، فهلا أعربت لما أضيفت إلى المفرد من نحو قولهم: فعلت إذ ذاك؟ قلت: هذه مغالطة، فإن «ذاك» ليس مجروراً بإضافة إذْ إليه، وإنما «ذاك» مبتدأ حذف خبره تخفيفاً، والتقدير: إذ ذاك كذلك، فالجملة هي التي في موضع جرّ»(١٩).

من هذه النصوص التي سجلها ابن جني يتأكد بناء إذْ، وهي كما قلت، نصوص تحمل في طياتها قوة الدليل، فـ «إذ» كُسرت ذالها في بيت الشاعر لالتقاء الساكنين، لأنها ليس قبلها شيء يوجب جرّها.

و بناء إذْ أمر اعترفت به الجماعة و يعنى بها، جماعة النحويين أو بعبارة أخرى جمهورهم، لأنها مثل مَنْ، وكمْ من حيث البناء على الوقف، ولايستطيع أحد أن يقول: إن كم معربة حينما يدخل عليها جرّ مثل قولهم: بكمٍ درهم اشتريت لأنها باقية على سكونها وكذلك القول في مَنْ إذا دخل عليها جارّ.

على أن سهم النقد كان نافذاً حينما وجهه إلى الأخفش حيث رماه بالسّهو والغفلة، لأنه علق في حاشية الكتاب معترفاً ببناء إذْ، فكيف إذاً يدّعي بعد ذلك أنها معربة مجرورة بالكسرة على تقدير ظرف مضاف محذوف قبلها في بيت أبي ذؤيب؟

ولم ينس ابن جنى أن يبينّ منطقياً أن إذْ حين إضافتها إلى الجملة تكون مبنية فمن باب أولى إذاً يقوى البناء حينما تنقطع هذه الجملة عنها.

و يؤيد ابن جنى رأيه بقراءة الكسائى التي أشرنا إليها في نصه السابق حيث بنى «يوم» من قوله تعالى: «من عذاب يَوْمَئِذٍ» على الفتح، لأنه مضاف إلى إذْ وهي غير متمكنة، وغير تمكنها يوجب لها البناء الذي اكتسبه الظرف (يوم) المضاف إلى (إذْ) لقوّة إذْ في البناء.

على أننا نستطيع أن نضيف إلى الأدلة السابقة في بناء إذْ غير شاهد أبى ذؤيب، وغير الأدلة التي سجّلها ابن جنى في ردّه على الأخفش نستطيع ان نضيف دليلا آخر وهو «أن بعض العرب يفتح الذال تخفيفاً فيقول: حينئذًا (٢٠).

ومعنى ذلك: أنها لو كانت معربة بالإضافة كما يدّعى الأخفش، لما فتحت ذالها، لأنها في موقع المضاف إليه، والمضاف إليه مجرور دائماً.

ولاننسى قبل أن نترك الحديث في بناء إذْ أن نذكر أن بعض العرب يبنون الظرف المضاف إلى إذْ، لأنه اكتسب البناء منها.

وفي ضوء هذا يقرر ابن السّراج في الأصول مانصه: «وأسماء الزمان إذا أضيفت إلى مبنىّ جاز أن تعربها، وجاز أن تبنيها، وذلك نحو: يومُئذ بالرفع، و يومَئِذٍ بالفتح»(٢١)

ومعنى ذلك جواز إعراب «يوم» على حساب العامل كأن تقول: هذا يومُئذ، بالرفع على الخبريّة، وجواز الفتح على البناء كأن تقول: هذا يومَئِذٍ بالبناء على الفتح للإضافة إلى مبنّى.

و يقوىّ رأى ابن السّراج قراءه «يوم» بالجرّ على الاعراب، والفتح على البناء فى قوله تعالى «لو يَفْتدى من عذاب يَوْمَئِذٍ ببنيه»(٢٢).

قال الفخر الرازى: «قرىء (يومئذ) بالجرّ والفتح على البناء لسبب الإضافة إلى غير متمكّن»(٢٣).

و ينسب أبو حيان الأندلسي في كتابه «البحر المحيط» قراءة الجرّ إلى الجمهور، وقراءة الفتح إلى أبي حيوة(٢٤). ونسبت إلى الكسائي أيضاً في بعض المراجع.(٢٥) و يلاحظ هنا أن الظروف الزّمانية المضافة إلى «إذْ» مسموعة في: «يوم» و «حين» وذلك بسبب اشتراكهما مع «إذْ» في الإضافة إلى الجمل.

غير أن البغداديّ في الخزانة ينقل إلينا خبراً مؤدّاه أنه قد: «وجد بخط صاحب القاموس تركيب هذه الظروف مع إذْ، قال: لايضاف إلى إذْ من الظروف في كلام العرب غير سبعة ألفاظ، وهي: يومئذ، وحينئذ، وساعتئذ، وليلتئذ، وغداتئذ، وعشيتئذ، وعاقبتئذ. قيل: ومقتضاه أنه لا يقال: وقتئذٍ، ولاشهرئذٍ، ولاسنتئذٍ.

وقد روى: أوانئذ في شعر الداخل بن حرام الهذليّ قال:

دَلَــفْــتُ لهــا أوانَــئــذٍ بِــسَــهــمٍ   وحلَيف لم تَخَوَّنْهُ الشُّروجُ (٢٦)

و يفسّر البغداديّ معنى البيت فيقول:

«والدليف: سيرٌ فيه إبطاء. وحليف: حديد. وتخوّنه: تنقصه، والشروج: الشقوق والصدوعُ»(٢٧).

و بعد، فنكتفي بهذا القدر من الحديث في بناء إذ لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ظرفيتها.

ظرفّية إذْ ولزومها:

هل تخرج إذْ الاسمّية عن الظرفّية فتتصرف بمعنى أنها تعرب مبتدأ أو فاعلاً، أو مفعولاً ؟

ينصّ السّيوطيّ في الهمع على أن إذْ الظرفية لا «تتصرف بأن تكون فاعلة أو مبتدأ»(٢٨).

على أن الزمخشريّ في الكشاف عند تعرّضه لتفسير قوله تعالى: «لقد منّ اللّهُ على المؤْمنين إذْ بعَثَ فيهم رَسولاً من أنْفُسِهم»(٢٩)، ذكر أنه قرىء: «لَمِنْ

منَّ اللّـه على المؤمنين إذْ بعث فيهم»(٣٠)، وبينّ الزمخشريّ أنه في ضوء هذه القراءة يجوز أن تكون إذ «في محلّ الرّفع كـ «إذا» في قولك: أخطب مايكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لِمنْ مَنِّ الله على المؤمنين وقت بعثه»(٣١).

والناظر في نص الزمخشريّ يرى أنه في هذه القراءة تقع إذْ خبراً، ووقوعها خبراً يجعلها متصرّفة، وهو في هذا الرأى قاس إذْ على إذا، لأن إذا في رأيه تقع خبراً في قولهم: أخطب مايكون الأمير إذا كان قائماً».

والواقع ان الزمخشرى خانه التعبير، أو بعبارة أخرى جانبه التوفيق في هذا التقدير، لأن أصل القول السائد هو: أخطب مايكون الأمير قائماً. فـ «قائماً» في هذا القول نصب على الحال، وتقدير القول هو كما قال الزمخشرى: «أخطب مايكون الأمير اذ كان أو إذا كان قائماً، فـ «إذ» عند إرادة المضيّ وإذا عند إرادة الاستقبال، «وقائماً» في القول السائد عند النحويين حال سدّت مسدّ الخبر الذي حذف وجوباً في هذا الموضع، لأن المبتدأ اسم تفضيل مضاف إلى المصدر المؤول، وفى هذه الحالة تقوم الحال مقام الخبر الذي يحذف وجوباً في هذه الحالة، وتقدير الخبر المحذوف: إذ كان أو إذا كان، وعامل الحال هو ضمير كان التامّة، والحال هنا لا تصلح أن تكون خبراً للمبتدأ الذي هو اسم تفضيل، فـ«قائماً» على هذا التقدير قامت مقا«اذ كان» لأن في الحال معنى الظرفية كما يقول الصّبان، لأنّ «معنى لقيت زيداً راكبا: لقتيه في وقت الركوب، و«إذ كان» سدّ مسد المتعلق الذى هو الخبر في الحقيقة كسداد بقية الظروف مسدّ متعلقاتها العامّة»(٣٢).

ولا أدرى لماذا يقيس الزمخشرى إذ على إذا، فالموضع في المثال المذكور صالح لإذ، وإذا معاً، فـ «إذ» كما قلنا: عند إرادة المضيّ، و«إذا» عند إرادة الاستقبال، فالمثال صالح للمعنيين.

على أن المثال الذى ذكره الزمخشرى لايتكلم به، لأن الخبر محذوف وجوباً أى أنه لايقال في العربيّة: أخطب مايكون الأمير إذا كان قائماً، وإنما القول المنسوب إلى العرب: أخطب مايكون الأمير قائماً.

ولله درّ ابن هشام فقد راعه هذا الخطأ التقديري، كما راعه أن ينسب إلى العرب قولاً لم يقولوه.

قال ابن هشام معقباً على رأي الزمخشري في تقديره لهذه القراءة مانصه: «ولانعلم بذلك قائلاً. ثم تنظيره بالمثال غير مناسب، لأن الكلام في إذْ لاّ في «إذا»، وكان حقه أن يقول: إذْ كان، لأنهم يقدرون في هذا المثال ونحوه «إذ» تارة، و«إذا» أخرى بحسب المعنى المراد، ثم ظاهره أن المثال يتكلّم به هكذا، والمشهور أن حذف الخبر في ذلك واجب، وكذلك المشهور أن إذا المقدرة في المثال في موضع نصب، ولكن جوّز عبدالقاهر كونها في موضع رفع تمسّكاً بقول بعضهم:

أخطب مايكون الأمير يومُ الجمعة بالرفع، فقاس الزمخشريّ «إذْ» على إذا، والمبتدأ على الخبر»(٣٣).

وإذا كانت إذْ لا تقع مبتدأ أو فاعلاً و إنما هي محصورة في الظرفية عند جمهور النحويين، فهل تقع مفعولاً به؟ وذلك ماسنجيب عنه في النقطة التالية:

هل تقع إذ الاسمية مفعولاً به؟

الناظر لكتاب سيبويه يرى أن «إذ» الاسميّة لاتخرج عن الظرفيّة في رأيه. يقول: «وإذ وهي لما مضى من الدّهر»(٣٤)، ومعنى ذلك أنّ إذ الاسميّة عند سيبويه لاتخرج عن الظرفيّة، ولكونها ظرفاً فإنها لا تعمل شيئاً فيما بعدها كما تعمل إنْ الشرطيّة، ولهذا، فإن دخولها على الاسم أولى بها من دخولها على الفعل. قال سيبويه: «فتركت الأسماء بعدها على حالها كأنه لم يذكر قبلها شيء.. إذْ كانت لا تغيّر مادخلت عليه»(٣٥).

و يتبع نهْجَ سيبويه في ظرفية إذْ الجمهورُ قالوا: «لا تكون إلاّ ظرفاً نحو: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إذ أَخْرَجَهُ الَّذِين كفروا»(٣٦)، ومضافاً إليها الظرف كقوله تعالى: «بَعْدَ إذْ هَدَيْتنا»، (٣٧)، «يومئذ تحدّث أخبارها»(٣٨)، «وأنتم حينئذ تنظرون»(٣٩).

وفي رأيي أنّ حصر إذْ في الظرفية فقط حجر على الاتساع في المعاني وتضييق على التنوّع في الأساليب .

فهناك أساليب في العربية وضوح إذْ فيها مفعولاً به أقوى من تقدير الظرفية فيها.

إن إذْ اسم، وما الذي يمنع من الاتساع فيخرج عن دائرة الظرفية إلى دائرة المفعولية؟ وأيهما أولى: اللجوء الى التقدير في الإعراب، أو الإعراب بدون تقدير؟

أعتقد أن النحويين وضعوا في أصولهم النحوية: أن مالا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

فمن مجيء إذْ مفعولاً به قوله تعالى: «واذكُروا إذ كنتم قليلاً»(٤٠)، وقوله تعالى: «واذكروا إذْ أنتم قليل»(٤١).

ومع وضوح المفعولية في هاتين الآيتين نجد جمهور النحويين يقدرون فيقولون: «المفعول محذوف، وإذْ ظرف، عامله ذلك المحذوف، والتقدير: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم»(٤٢).

وتطالعنا آيات كثيرة في أوائل القصص تشتمل على إذْ بدون أن يسبقها عامل فيها، وأيسر إعراب لـ «إذْ» هذه أن تكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره: «اذكر»، واختيار هذا الفعل بخاصة، لأن بعض الآيات القرآنية الأخرى التى اشتملت على إذ ذكر هذا الفعل قبلها كالآيتين السابقتين، والقرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً.

ومن الآيات التي تعْرب فيها إذْ مفعولاً للفعل «اذكر» محذوفاً.

أ ـــ «وإذ قال ربك للملائكة»(٤٣).

ب ـــ «وإذ قلنا للملائكة» ، (٤٤).

جـ ـــ «وإذ فرقنا بكم البحر» (٤٥).

وعلى الرغم من وضوح مفعولية إذْ في هذه الآيات فإن الجمهور يقدرون

أن إذْ في هذه الآيات ظرف لـ: «اذكر» محذوفاً، وليست مفعولاً به لهذا الفعل المحذوف.

وقد ردّ عليهم ابن هشام رداً فيه قوة الحق، وسلامة الدليل، ووضوح الحجة. قال: «هذا وهمٌ فاحش لاقتضائه حينئذ الأمر بالذكر في ذلك الوقت مع أن الأمر للاستقبال وذلك الوقت قد مضى قبل تعلق الخطاب بالمكلفين منّا، وانما المراد ذكر الوقت نفسه لا الذكر فيه»(٤٦).

على أن أبا البقاء أيوب بن موسى الحسيني اللغوى وضع الأمر في نصابه حينما بين أن إذْ في هذه الآيات التي أضمرت أفعالها مفعول به على سبيل التجوّز.

قال: «كل ماورد في القرآن: «وإذ» «فاذكر» فيه مضمر، أى اذكر لهم، واذكر في نفسك كيفما يقتضيه صدر الكلام، و«إذْ» منصوب به وعليه اتفاق أهل التفسير مع أن القول واقع فيه.

ولم يجعلوه ظرفاً له بل مفعولاً به على سبيل التجوّز مع أنه لازم الظرفية فَعَدلوا عن الحقيقة إلى المجاز، لعدم إمكان مظروفية المضاف إليه»(٤٧).

وكما تقع إذْ مفعولاً به قد تقع بدلاً من المفعول به، والمثال على ذلك قوله تعالى. «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت»(٤٨)، فـ «إذْ» بدل اشتمال من مريم على حدّ البدل في: «يَسْألونك عن الشّهر الحرام قتالٍ فيه»(٤٩) وقوله تعالى: «اذكروا نِعمةَ الله عليكم إذْ جعل فيكم أَنْبِيَاء»(٥٠).

قال ابن هشام معلقاً على الآية الأخيرة: «يحتمل كون إذْ ظرفاً للنعمة وكونه بدلاً منها»(٥١).

هل تقع إذْ حالاً ؟:

قال السّيوطيّ في «معترك الأقران»: «وذكر بعضهم أنها تأتى للحال نحو: «ولاَ تَعملون مِنْ عَملٍ إلاّ كُنّا عليكم شُهوداً إذْ تُفيضُونَ فيه»(٥٢).

دراسة تطبيقيّة لأسلوب إذْ في القرآن الكريم :

يواجهنا المفسّرون في كتبهم المشهورة بتقديرات مختلفة لإعراب : «إذْ » التي تعدّدت في القرآن الكريم، ومن خلال هذا التعدّد اختلفت الأساليب وكثرت التقديرات. وعلى سبيل المثال نذكر طائفة من أساليب إذْ في القرآن الكريم مع توجيهات المفسّرين لها:

أ ــ من ذلك قوله تعالى :

«إذْ قالت امرأةُ عِمْران رَبِّ إنّى نَذَرْتُ لك مافى بطني مُحرّراً». (٥٣)

قال الطبرسى في تفسيره: «في موضع» «إذْ قالت» أقوال:

أحدها: أنه نصب بـ «اذكر» عند الأخفش والمبرّد.

والثانى: أنه متعلق بـ «سميع عليم» [في الآية التى قبلها]، فيعمل فيه معنى الصفتين، تقديره: والله مدرك لقولها ونيتها إذ قالت. عن عليّ بن عيسى.

والثالث : أنه متعلّق بـ «اصطفى [فى الآية ٣٣]»، عن الزجاّج.

الرابع : أن «إذْ» زائدة فلا موضع لها من الإعراب عن أبى عبيدة. وهذا خطأ عند البصريين»(٥٤).

ب ــ ومن ذلك قوله تعالى :

«وإذْ قالت الملائكةُ يامُريم إنّ اللّهَ اصْطفاك»(٥٥) قال الطبرسى: إذْ هذه معطوفة على إذ في قوله: «إذ قالت امرأة عمران» أو يكون معناه: اذكر إذ قالت الملائكة(٥٦).

جـ ــ ومن ذلك قوله تعالى :

«وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُون أقْلامَهُمْ»(٥٧).

قال أبو عليّ : إذْ في قوله : «إذْ يُلْقُون» متعلّق بـ «كنت»، كأنه قال: «وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة»، وهذا إنما يجوز عندى إذا قدرت إذْ الثانية بدلاً من

الأولى، فإن لم تقدره هذا التقدير لم يجز، وإنما يجوز البدل في هذا إذا كان وقت اختصاصهم وقت قول الملائكة ليكون البدل المبدل منه في المعنى»(٥٨).

د ـــ ومن ذلك قوله تعالى :

«إذْ قال الله ياعيسى إنّى مُتوفّيك ورافِعُك إليّ»(٥٩).

قال الطبرسيّ: العامل في إذْ قوله: «ومكَروُا ، ومكَر اللّهُ، والله ُخَيْر الماكرين»(٦٠) «إذ قال».

ويحتمل أن يكون تقديره: ذاك إذ قال الله، وتمثيله: ذاك واقع إذ قال الله، ثم حذفت: «واقع» وهو العامل في إذ، وأقيمت إذ مقامه»(٦١).

هـ ـــ ومن ذلك قوله تعالى :

«وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهلِك»(٦٢).

قال الطبرسيّ: «العامل في إذ محذوف، وتقديره: واذكر إذ غدوت. وقيل: هو عطف على ماتقدم في السورة من قوله: «قد كان لكم آية في فئتين التقتا»،[الآية ١٣ آل عمران] أى في نصرة تلك الطائفة القليلة على الطائفة الكثيرة إذ غدا النّبى صلى الله عليه وسلم. عن أبى مسلم.

وقيل : العامل فيه قوله: «محيط»، وتقديره ـــ والله أعلم بأحوالكم وأحوالهم إذ غَدَوْت من أهلك»(٦٣).

و ـــ ومن ذلك قوله تعالى :

«إذْ تُصْعِدون ولا تَلْوُنَ على أحدٍ»(٦٤).

قال الطبرسيّ: قوله: إذ تصعدون» العامل في إذْ قوله: «ولَقَدْ عفَا عَنْكُم»(٦٥)

وقبل أن ننهى هذه الدراسة التّطبيقّية لـ «إذ» في القرآن الكريم نودّ أن نشير إلى أنّ الزركشى في «البرهان» بين لنا أنه: «حيث وقعت إذ بعد: «واذكر» فالمراد بها الأمر بالنظر إلى مااشتمل عليه ذلك الزمان لغرابة ماوقع فيه، فهو جدير بأن ينظر فيه.

وقد أشار الى هذا الزمخشريّ في قوله تعالى: «واذْكُر في الكتاب مَرْيَم إذ انْتَبَذَت»(٦٦)، وقوله : «واذْكُر في الكتاب إبْراهِيم إنَّه كان صِدِّيقاً نبيّاً إذ قال لأ بيه»(٦٧).

كذلك نضيف إلى هذه الاشارة إشارة أخرى، وهي أن إذْ وقعت بدلاً في بعض الأساليب حيث وقعت بدلاً من المفعول به في قوله تعالى: «إذ انْتَبَذتْ»(٦٨) حيث أعربت إذْ بدل اشتمال من مريم في قوله تعالى: «واذكر في الكتاب مريم»، وبعض آيات أخرى سبق ذكرها. ومع ذلك فإن إعراب إذْ بدلاً من «اليوم» في قوله تعالى: «ولن يَنْفَعَكُم اليومَ إذْ ظَلَمْتُم»(٦٩) يترتب عليه إشكال يحتاج الى حلّ.

وقد وفق ابن جنى الى هذا الحلّ حينما قال: «راجعت أبا عليّ مراراً في قوله : ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتم» مستشكلاً إبدال إذْ من اليوم، فآخر ماتحصّل منه: أن الدنيا والآخرة متصلتان، وأنهما في حكم الله سواء فكأنّ اليوم ماضٍ»(٧٠).

إذْ الظرفية هل تدلّ على المستقبل ؟:

لم يصرح سيبويه في كتابه بوقوع إذْ دالّة على المستقبل، وكل ماذكره في شأنها: أنها لما مضى من الدهر.(٧١).

ومعنى ذلك أنّ إذ لا تستعمل عند سيبويه إلاّ ظرفاً لما مضى من الدهر. ويقرّر سيبويه حكماً أسلوبياً لكل الأزمنة الماضية في ضوء دراسته ل «إذ» التي تدلّ على الزمن الماضي، فكل زمن في نظره أضيف إلى الجملة الاسميّة صحّ بناؤه، واستقام تركيبه إذا كان بمعنى إذْ ، ومالم يكن بمعنى إذ، فإن إضافته إلى الجملة الاسميّة خروج عن منطق الصواب، وبعد عن سلامة التركيب.

يقول سيبويه : «وسألته عن قوله في الأزمنة: كان ذاك زَمَنَ زيدٌ أميرٌ، فقال: لما كانت في معنى: إذْ على ماقد عمل بعضه في بعض، ولايغيرونه، فشبهوا هذا بذلك، ولايجوز هذا في الأزمنة حتى تكون بمنزلة إذْ . فإن قلت: يكون هذا يَوْمَ

زيدٌ أميرٌ كان خطأ، حدثنا بذلك يونس عن العرب، لأنك لا تقول: يكون هذا إذا زيدٌ أميرٌ»(٧٢) و يضع. سيبو يه الحدود الفاصلة بين إذْ التى تدلّ على الماضى، وإذا التى تدلّ على المستقبل: أن الزمن إذا أضيف إلى الفعل أو الاسم كان في معنى إذ، لأنه وقع. أماً إذا لم يقع، فإن الزمن لايضاف إلى الأسماء، وإنما يضاف إلى الجمل الفعلّية.

و بهذا التفسير الواضح حدّد سيبو يه وظيفة إذ، كما حدّد وظيفة إذا حينما قال :

«جملة هذا الباب أن الزمان إذا كان ماضياً أضيف إلى الفعل، وإلى الابتداء والخبر، لأنه في معنى إذْ ، فأضيف إلى مايضاف إليه إذْ. وإذا كان لما لم يقع لم يضف إلاّ إلى الأفعال، لأنه في معنى إذا، وإذا هذه لا تضاف إلاّ إلى الأفعال»(٧٣).

واضح إذن من هذين النّصين أن إذْ عند سيبو يه لا تقع دالّة على الاستقبال. وتابع سيبو يه في هذا الرأى جمهور النحو يين.

ومع تحليل سيبو يه لمنع إذْ من الاستقبال، وهو تحليل له قوته ومنطقيته فإنّ بعض المتأخرين من النحو يين لم يوافقوا سيبو يه على رأيه، قائلين: إن إذْ تقع دالة على الاستقبال في بعض الأساليب.

قال ابن قاسم المرادى في كتابه: «الجنى الدانى» مشيراً إلى مذهب المتأخرين في دلالة إذْ على معنى الاستقبال، وأنها في هذه الحالة بمنزلة إذا، قال: «إذ يكون ظرفاً لما يستقبل من الزمان بمعنى إذا، ذهب إلى ذلك قوم من المتأخرين منهم ابن مالك، واستدلوا بقول الله تعالى: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم»(٧٤)، و بآيات أخرى(٧٥) كقوله تعالى: «يومئذ تحدّث أخبارها»(٧٦).

ومن المؤيدين لوقوع اذ بمعنى الاستقبال ابن هشام، فقد احتج للمثبتين لـــ «إذ» معنى الاستقبال بقوله تعالى: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم» قائلا: «فان «يعلمون» مستقبل لفظاً ومعنى لدخول حرف التنفيس عليه، وقد أعمل في إذْ، فيلزم أن يكون بمنزلة إذا»(٧٧).

ولم ينس ابن هشام أن يوضح رأى المانعين بقوله :

«والجمهور لايثبتون هذا القسم، ويجعلون الآية [السابقة] من باب «ونفخ في الصّور»(٧٨)، أعنى من تنزيل المستقبل الواجب الوقوع منزلة ماقد وقع»(٧٩).

والرأى الذي أميل اليه هو جواز وقوعها موقع إذا الدالّة على المستقبل،لان الأدوات يقع بعضها موقع بعض لاعتبارات بلاغية تدرك من الموقف، وتتضح من السياق، و يشير اليها الأسلوب، يدلك على ذلك «أن الأمور المستقبلة لمّا كانت في إخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبّر عنها بلفظ الماضى»(٨٠).

إذْ الظرفية مضافة إلى الجمل :

سبق أن بيّنا أن إذْ الظرفية تضاف إلى الجملتين، الاسمّية والفعلّية، غير أن سيبويه يجعل الجُمَل المبدوءة بأسماء بعدها أولى من الجمل المبدوءة بأفعال. قال سيبويه : «فتركت الأسماء بعدها على حالها، كأنه لم يذكر قبلها شيء فلم يجاوزوا ذا بِها، إذ كانت لاتغيرمادخلت عليه، فيجعلوا الاسم أولى بها من الفْعل»(٨١).

وإضافة إذْ إلى الجملة إضافة لازمة، لأنها لا توجد في أساليب الكلام إلا مضافة.

وإضافتها إلى الجملة الاسمّية كقوله تعالى: «واذْكُروا إذْ أنتم قليلٌ»(٨٢).

وإضافتها إلى الجملة الفعلّية على النحو التالى :

أ ــ جلة فعلية فْعلها ماضٍ لفظاً ومعنًى:

مثل قوله تعالى : «وإذْ قال ربُّك للملائكة»،(٨٣)، «وإذْ ابتَلى إبراهيَم ربُّه بكلمات»(٨٤).

ب ــ جملة فعلية فعلها ماضٍ معنًى لا لفظاً:

مثل قوله تعالى : «وإذْ تَقُول لِلذّى أنْعَمَ اللهُ عليه، وأنْعَمْتَ عليه»(٨٥)

هذا وقد اجتمعت الجملة الاسمية مع الجملة الفعلية في مثاليها المذكورين في قوله تعالى : «إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذْهما في الغار إذْ يقول لصاحبة لاتحزن»(٨٦).

قال ابن هشام محلّلاً إذْ فى هذه الجمل:

«الأولى ظرف لـ «نصره» والثانية بدل منها، والثالثة، قيل : بدل ثان وقيل: ظرف لـ «ثاني اثنين». وفيهما، وفي إبدال الثانية نظر، لأن الزمن الثانى والثالث غير الأول، فكيف يُبْد لان منه؟

ثم لايعرف أن البدل يتكرر إلاّ في بدل الإضراب، وهوضعيف لايحمل عليه التنزيل .

ومعنى ثانى اثنين: واحد من اثنين، فكيف يعمل في الظرف، وليس فيه معنى فعل؟

وقد يجاب بأن تقارب الأزمنة ينزلها منزلة المتحدة، أشار الى ذلك أبو الفتح في (المحتسب)، والظرف يتعلق بوهم الفعل، وأيسر روائحه»(٨٧).

وفي مجال اضافة إذْ إلى الجمل، وأن هذه الإضافة لازمة أزال ابن هشام شبهة ورود إذْ في بعض الأساليب بدون إضافة إلى الجملة في الظاهر. قال ابن هشام: وقد يحذف أحد شطرى الجملة فيظن من لاخِبْرةَ له أنها أضيفت إلى الفرد كقوله :

هل تَرْجِعَنَّ ليالٍ قد مضَيْن لَنا والعيشُ مُنْقلبٌ إذْ ذاك أفنانا(٨٨)

والتقدير : إذ ذاك كذلك.

وقال الأخطل:

كانت منازل ألاّف عهدتهم إذ نحن إذ ذاك دون النّاس إخوانا(٨٩).

«نحن» و «ذاك» مبتدآن حذف خبرهما، والتقدير: عهدتهم إخواناً إذ نحن متآلفون، إذ ذاك كائن.

ولا تكون إذْ الثانية خبراً عن نحن، لأنه زمان، «ونحن» اسم عين، بل هي ظرف للخبر المقدّر، و«إذ» الأولى ظرف لـ «عهدتهم».

وقالت الخنساء:

كـان لـم يـكـونـوا حِـمىً يُـتَّـقَى   إذ الـنّـاسُ إذْ ذاكَ مَنْ عزَّ بَزّا(٩٠)

قال ابن هشام: إذْ الأولى ظرف لـ «يُتّقى» أو لـ «حمى»، والثانية ظرف لـ «بزّ»، ومَن: مبتدأ موصول لاشرط، لأن «بز» عامل في إذْ الثانية، ولايعمل مافي حيزّ الشرط فيما قبله عند البصريين.

و«بز»: خبر «مَن» والجملة: خبر الناس، والعائد محذوف أي من عزّمنهم..

ولايكون إذْ الأوّلى ظرفاً لـ «بز»، لأنّه جزء الجملة التي أضيفت إذْ الأولى إليها، ولايعمل شيء من المضاف إليه في المضاف، ولا إذْ الثانية بدل من الأولى، لأنها تكمل بما أضيفت إليه، ولايتبع اسم حتى يكمل.

ولا تكون خبراً عن الناس، لأنها زمان، والناس اسم عين، «وذاك»: مبتدأ محذوف الخبر، أي كائن، وعلى ذلك فقس»(٩١).

وإذا أضيفت إذْ الى الجمل الفعلّية، فإن كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيره تقول مثلاً: جئت إذْ يحاضر الأستاذ، فهي مضافة إلى جملة فعلية فعلها مضارع، وتقول: جئت إذا الأستاذ يحاضر، فهي مضافة إلى جملة اسمّية، وكلا الأسلوبين حسن، لايتميز أسلوب عن أسلوب، ولكن الأمر يختلف حينما تضاف إذْ الى جملة تشتمل على فعل ماض تقول مثلاً: جئت إذْ حاضر الأستاذ، فهي مضافة إلى جملة فعلّية فعلها ماض، وهذا الأسلوب مستساغ نحوياً، ولكن إذا قيل: جئت إذ الأستاذ حاضَرَ فإنه أسلوب ضعيف وإن كان جائزاً نحوياً. السبب في هذا أنّ إذْ ظرف للزمن الماضي، فإذا كان في الجملة المضاف إليها فعْل ماض

استحبّوا أن يلي إذْ، لأن إذ للماضي و«حاضَرَ» للماضي، فهناك اتفاق بينهما في الزمن، ومشاكلة بينهما في الماضي يقول ابن يعيش :

«وإذا كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيره نحو: جئتك إذ يقولون زيد، وإذ زيد يقوم، وإذا كان ماضياً لم يحسن تأخيره، لايكادون يقولن : إذ زيد قام، وذلك لأن إذ ظرف زمان ماض، فإذا كان معك فعل ماض استحبوا إيلاءه إياه لتشاكل معناهما»(٩٢).

ثانيا : إذْ بين الاسمية والحرفية

يذكر النحو يون أن إذْ قد تخرج عن الاسمية لتكون حرفاً يؤدي ماتؤديه حروف المعانى، ومع ذلك فهم ليسوا على اتفاق على هذه الحرفية، لأن بعضهم يرى أنها لاتخرج عن الظرفية. وإذْ هذه لها معان عديدة منها :

أ ــ إذْ التعليلية :

يمثل النحو يون لـ «إذ» التعليلية بقول الله تعالى : «ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون»،(٩٣) أى ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب لأجل ظلمكم في الدنيا»(٩٤).

وقد اختلف النحو يون في إذْ هذه هل هي حرف أو اسم؟

ينسب السيوطيّ في «معترك الأقران» إلى سيبو يه أنه يرى أن إذْ التعليلية حرف (٩٥).

و يذهب آخرون : إلى أنها ظرف بمعنى:، وقت، والتعليل في رأيهم مستفاد من قوة الكلام وسياقه، وليس من لفظ: إذْ

قال السيوطى عند ذكره لـ «إذ» التعليلية: «هل هى حرف بمنزله لام العلة أو ظرف بمعنى الوقت، والتعليل مستفاد من قوة الكلام لامن اللفظ ؟ قولان المنسوب إلى سيبو يه الأول»(٩٦).

وفي رأيي أن قوّة الكلام لادخل لها في التعليل، فالتعليل في أوضح تعريف له هو: تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر»(٩٧)، فإذا قلنا مثلاً: ذاكر الطالب لينجح، فإن المذاكرة مؤثر لإثبات الأثر الناتج عنها وهو النجاح، ولم يتحقق هذا التعليل إلا باللام التي من معانيها التعليل.

أما قوّة الكلام فإنها تعطي للأسلوب تأكيدا، ولم تعطه تعليلاً وفرق كبير بين التأكيد والتعليل.

ولو أنعمنا النظر في تقدير الذين يقولون بظرفية إذْ الواقعة للتعليل لرأينا أن في هذا التقدير بُعداً وتكلفاً، وتحميلاً للألفاظ بما لا تحتمل فقد رأوا أنه «إذا قيل: ضربته إذْ أساء، وأريد بـ «إذْ» الوقت اقتضى ظاهر الحال أن الاساءة سبب الضرب»(٩٨).

وفي نظري، لاداعي لتقدير الوقت في هذا المثال، لأن إذْ قامت مقام لام التعليل أي ضربته للإساءة، ومادامت تؤدي معنى التعليل، فإن المناسب أن تكون حرفاً كـ (لام) التعليل..

على أنه يترتب على جعلها ظرفاً إشكالات نحن في غنى عنها.

وقد أشار إلى هذه الإشكالات السّيوطيّ حينما بينّ أن إذْ في الآية السابقة لا تبدل من «اليوم» لاختلاف الزّمانين، ولا تكون ظرفاً لـ «ينفع» لأنه لايعمل في ظرفين، ولا «مشتركون»، لأن معمول خبّر «أنّ» وأخواتها لايتقدم عليها، ولأن معمول الصّلة لايتقدم على الموصول، ولأن اشتراكهم في الآخرة لا في ظلمهم»(٩٩).

ويحاول الزّمخشريّ أن يخرج من هذه الإشكالات حينما يقدّر إذْ في الآية بأنّها دالة على الظرفية بما نصه: «فإن قلت: مامعنى قوله تعالى: «إذْ ظلمتم؟ قلت: معناه، إذ صحّ وتبيّن لكم، ولم يبق لكم، ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة، و«إذْ» يدل من اليوم، ونظيره:

* إذا ما انتَسَبْنا لم تَلِدْنى لئيمة *

«أى تبيّن أنى وَلَدُ كَرِيمةٍ »(١٠٠).

والمتدبّر لرأى الزمخشرى في نصه يرى أن «إذ» في الآية ليست للتعليل وإنّما هى بدل من اليوم، باقية على ظرفيتها، ولكن يواجه الزمخشرى بمشكلة مؤداها أن إذْ ظرف زمان ماض، «ولن ينفعكم وفاعله، «واليوم» المذكور ليس بماض، فكيف يبدل ماض من مستقبل؟

لقد أحسّ الزمخشرى بإشكال هذه القضية، ولكنه وجد مخرجاً لها وهو تنظيره بشطر البيت السابق.

ولوضوح هذا التنظير نقول: إن هذا الشطر تكملته:

* ولم تجدى من أن تُقِرّى بها بدًّا *

وهذا البيت لزائد بن صعصعة، وكانت له أمرأة فطمحت عليه، وكانت أمّها سرية فقال هذا البيت، وقبله:

رمَتْنِي عن قَوْسِ العَدُوِّ وباعَدَتْ عبيدةُ زاد اللّه مابيننا بُعْدا(١٠١)

والتنظير بهذا البيت قائم على أن جواب الشرط وهو: «لم تلدنى» ماضى في المعنى، وإن كان مضارعاً في اللفظ، ومُضِيّ المعنى جاء إليه من «لم» الداخلة على الفعل المضارع حيث تقلب معناه إلى المضى بعد أن كان صالحاً للحال والاستقبال هذه ناحية.

وناحية أخرى، فإن ولادته حدثت منذ زمن بعيد، ولاشك أن هذا لايتفق مع إذا التى خصصت للمستقبل.

إنّ مضى جواب الشرط، والولادة التى حدثت في الزمن الماضى البعيد، كلاهما ليس مراداً للشاعر، وإنما المراد أننا إذا تفاخرنا يتبيّن لنا أننى لم تلدنى

لـشيـمـة والـتبـيّـن مستقبل لاماض، و بهذا التأو يل صار الجواب مستقبلاً كفعل الشرط .

والـذي دفعـنـا إلى بـيـان هـذا الـتـأو يل هو التزام القاعدة التي وضعها الـنحو يون لفعل الشرط حيث اشترطوا فيه ألاّ يكون ماضي المعنى، فلايجوز عندهم إن قام زيد أمس أقم معه.

فـإنْ و وجـه النحو يون بقوله تعالى : «إنْ كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمتَه»(١٠٢) فهذا مؤول والمعنى كما يقول ابن هشام «إن يتبين أنى كنت قلته»(١٠٣).

والـواقـع أنـنـا لـو قـلـنا بحرفية إذْ، وأنها تقع للتعليل كـ (لام) التعليل لاستغنينا عن هذه التأو يلات العديدة، والتقديرات المختلفة التى لمسناها في رأى القائلين بالظرفية وعلى رأسهم الزمخشرى.

والسؤال الذي يقال هنا هل هناك آيات قرآنية، أو شواهد شعرية وقعت فيها إذْ تعليلية أومحتملة للتعليل غيرماذكر؟

ابن هشام يجيب عن هذا التساؤل فيقول :

«ومما حملوه على التعليل ـــ قوله تعالى ـــ «وإذْ لم يَهْتَدوا به فسيقولون هذا إفْكٌ قـديم»(١٠٤)، ـــ وقوله تعالى ـــ «وإذْ اعتَزَلْتُموهم ومايعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف»(١٠٥).

(ومن الشعر) قول الفرزدق :

فـأصـبـحـوا قـد أعـادَ اللّـهُ نِـعْـمُـتـهُـم   إذْهـم قُـريْـشٌ وإذ مامِثْلَهم بَشَرُ(١٠٦)

وقول الأعشى :

إنّ مَـــحـــلاً وإنَّ مُـــرْتحـــلاً   وإنّ فى الـسّـفْـر إذْ مَضَوا مَهَلا(١٠٧)

أى إن لـنـا حـلـولاً في الـدنـيـا، وإن لنا ارتحالاً عنها إلى الآخرة، وإن في الجـمـاعة الذين ماتواقبلنا إمهالاً لنا، لأنهم مضوا قبلنا، و بقينا بعدهم. وإنما يصح ذلك كله على القول بأنّ إذْ التعليلية حرفٌ كما قدمنا»(١٠٨).

ومن إجابة ابن هشام عن هذا التساؤل نعلم أنه من المؤيدين لتعليلية إذ وحرفيتها، ففى الآية الأولى يتضح التعليل ولا يحتاج إلى تأويل فلعدم اهتدائهم رموا ماجاءت به الرسل بأنه إفك قديم.

وفي الآية الثانية تعليل لاعتزال أهل الكهف قومهم، واعتزال عبادتهم المتمثلة في الأصنام.

وفي بيت الفرزدق السابق لتعدد الاستشهاد به في كتب النحو يذكره البغدادى في الخزانة متحدثاً عن إذ فيقول : «إذ في الموضعين للتعليل»(١٠٩)

وأما البيت الثانى فقد حلل معناه ابن هشام ـــ فيما سبق ـــ وفي ضوء هذا التحليل لانرى واضحاً إلا معنى التعليل.

على أن الجمهور لايثبتون هذا القسم لـ «إذ» ويجرّدونها من معنى التعليل.

ومعظم المفسرين درجوا على هذا المنهج، واتخذوا مذهب الجمهور مذهبا فهاهو ذا الفخرا الرازى يقدّر الآية الأولى بقوله:

«واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله : «وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم»، والمعنى: أنهم لمّا لم يقفوا على وجه كونه معجزاً فلابد من عامل في الظرف في قوله : «وإذْ لم يهتدوا به» ومِنْ متعلّق لقوله: «فسيقولون»

وغير مستقيم أن يكون «فسيقولون» هو العامل في الظرف لتدافع دلالتى المضيّ والاستقبال، فما وجه هذاالكلام؟ وأجاب عنه بأن العامل في إذْ محذوف لدلالة الكلام عليه. والتقدير : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا إفك قديم»(١١٠).

و يقول العكبرى في تقدير الآية الثانية مانصه :

«قوله تعالى : «وإذا اعتزلتموهم» إذ ظرف لفعل محذوف أى وقال بعضهم لبعض»(١١١).

ولتتضح معنى هذه الآية في ذهن القارىء مع وجود إذ الظرفية نرى أنه من المناسب تكملة النصّ لتتضح رؤية الظرفية فيها من ناحية، ولإزالة بعض الاشكالات في الآية من ناحية أخرى.

قال العكبريّ : «ومايعبدون» في «ما» ثلاثة أوجه:

أحدها : هي اسم بمعنى الذي و «الاّ اللّة) مستثنًى من «ما» أومن العائد المحذوف .

والثاني : هي مصدريّة، والتقدير : اعتزلتموهم وعبادتهم إلاّعبادة الله.
والثالث : أنها حرف نفي، فيخرج في الاستثناء وجهان: أحدهما هو منقطع، والثاني: هو متصل، والتقدير: وإذْ اعتزلتموهم إلا عبادة الله، أوما يعبدون إلا الله، فقد كانوا يعبدون الله مع الأصنام، أو كان منهم من يعبد الله»(١١٢).

وفي ختام بحث إذْ التعليلية نحب أن نسجل في هذا البحث بيتاً للمتنبيّ أثار قضية فكرية في نفس ابن هشام، ومع أن المتبنيّ لايستشهد بشعره في النحو لتأخر زمانه عن أزمنة الفصاحة التي سبقته، فإن ابن هشام ذكر بيته لأمرين

الأمر الأول : أن هذا البيت اشتمل على إذ وهي تحتمل التعليل والظرفية

والأمر الثاني : أن أعرابه لوجود إذْ فيه يحتاج إلى إيضاح. أماّ البيت فهو.

أمِنَ ازديارَكِ في الدُّجى الرُّقباءُ   إذْ حَيْثُ كُنْتِ من الظَّلام ضياءُ(١١٣)

يقول ابن هشام: «أضيفت إذ إلى الجملة الاسمية، فاحتملت الظرفية والتعليلية في قول المتنبي [ثم ذكر البيت السابق.]
وشرحه : أن أمن فعل ماض فهو مفتوح الآخر، لامكسورة على أنه حَرْف جرٍّ كما توهم شخص أدّعى الأدب في زماننا، وأصرّعلى ذلك. والازديار أبلغ من الزيارة كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب، لأن الافتعال للتصرف، والدال بدل عن التاء، و«في» متعلقّة به لابأمنَ، لأن المعنى أنهم أمنوا دائماً أن تزورى في الدّجى.

وإذْ : إماّ تعليل أو ظرف مُبْدل من مَحلّ في «الدجى»، و «ضياء» مبتدأ خبره:

«حيث»، وابتدىء بالنكرة لتقدم خبرها عليها ظرفاً، ولأنها موصوفة في المعنى، لأن من الظلام صفة لها في الأصل، فلما قدّمت عليها صارت حالاً منها.

و«من» للبدل، وهي متعلقة بمحذوف، «وكان» تامّة، وهي وفاعلها خفض بإضافة «حيث». والمعنى : إذ الضياء حاصل في كل موضع حصلت فيه بدلاً من الظلام»(١١٤).

ب ـــ إذْ الفجائية

يبدو أن مصطلح المفاجأة أو إذْ الفجائية مصطلح متأخر، نقول ذلك لأننا لم نجد كلمة المفاجأة في كتاب سيبويه حينما تعرض لبحث إذْ الفجائية. وإن غابت كلمة (المفاجأة) في كتاب سيبويه فلم يغب معناها، فمعنى المفاجأة قرّرهُ سيبويه حينما يقول في «إذْ » ، و«إذا» اللتان تقعان للمفاجأة : «وتكون [أي إذا] ـــ للشيء توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك: مررت فإذا زيد قائم، وتكون إذْ مثلها أيضاً. وذلك قولك : بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذا نتفخ على فلان، فهذا لماتوافقه، وتهجم عليه في حال أنت فيها(١١٥).

وواضح أن نص سيبويه يشير إلى المفاجأة حينما يقول: «وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها». وهذا المعنى هوبعينه معنى المفاجأة.

والسؤال الذي يطرح نفسه في معرض الحديث عن إذْ الفجائية هو: هل هي حرف أو اسم يحمل معنى الظرفية؟

لم يحدّد سيبويه معنى إذْ حينما تقع للمفاجأة، هل هي حرف أو اسم إنه سكت بإزائها على حين لم يسكت بإزاء إذا الفجائية حيث قرّرظرفيتها عند الحديث عنها حينما يقول:

«وأمآ إذا فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهي ظرف ، وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها»(١١٦).

ومن أجل صَمْت سيبويه عن إبداء رأيه في إذْ التي للمفاجأة هل هي حرف او اسم احتدم الجدل بين علماء النحو في معناها:

رأى المبرّد ؟:

يرى المبّرد أن إذْ التي للمفاجأة اسم باق على ظرفيته، وهي في رأيه ظرف مكان في جواب: «بينا» أو «بينما»، وهي منصوبة لما بعدها، و«بينا» و«بينما» ظرفا زمان له.

قال الرّضي موضحاً رأى المبرّد: «فمعنى: بينا زيد قائم إذ رأى هنداً: رأى زيد هنداً بين أوقات قيامه في ذلك المكان أى في مكان قيامه»(١١٧). فالمفاجأة في رأى المبرّد لم تعط لـ «إذ» معنى الحرفيّة، وانما هي باقية على ظرفيتها. والجديد في رأى المبّرد أنّها ليست للظرفية الزمانية، وانما هي للظرفية المكانية، وبينا، وبينما قبلها تدلاّن على الظرفية الزمانية وهذا هو التفسير لرأى المبرد الذي أشار اليه الرضى حينما قدر في المثال السابق:

رأى زيد هنداً بين أوقات قيامه، فـ «بين» مضافة للزمان، وبهذه الإضافة اعتبرت للزمان، و«إذْ» تعني المكان، وهو المشار إليه في عبارة الرّضى: «في ذلك المكان» التي تساوى في معناها ــ إذْ الفجائية .

أما عامل النصب في إذْ المكانية عند المبرد في المثال السابق هو مابعد إذْ المتمثل في الفعل «رأى»، في المثال .

٢ ــ رأى ابن جنّي وابن الباذش :

يرى ابن جنى وابن الباذش أن إذْ الفجائية ظرف، وعاملها على الظرفية الفعل الذي بعدها، لأنها غير مضافة إليه، وعامل: بينا، وبينما محذوف يفسّره الفعل المذكور.

ويوافقهما (الشلوبين) في ظرفية إذْ غيرْ أنه لايرى أن عاملها الفعل الذي بعدها، لأن المضاف إليه لايعمل في المضاف، ولافيما قبله، وانما العامل في رأيه محذوف يدل عليه الكلام، وإذْ: بدل من بينا أو بينما(١١٨).

٣ ــ رأى ابن بريّ:

و يرى ابن بريّ أن إذْ الفجائية حرف، و يقدّر العامل في «بينا» و «بينما» مابعد إذْ الفجائية(١١٩).

وهو مذهب يستريح اليه الرضى حيث يقول: «الأولى القول بحرفيّة المفاجأة»(١٢٠).

٤ ــ رأى أبي حيّان:

يرى أبو حيان: أنها حرف لمعنى المفاجأة إقراراً لها على ماأستقر لها»(١٢١).

٥ ــ رأى ابن مالك:

أنها حرف مؤكد في هذا الأسلوب.(١٢٢).

٦ ــ رأى ابن الشجريّ:

يرى أنها حرف زائد إذا وقعت بعد «بينا» و «بينما» خاصة، قال: لأنك إذا قلت: بينما أنا جالس إذ جاء زيد فقدرتها غيرزائدة أعملت فيها الخبر، وهي مضافة إلى جملة: جاء زيد، وهذا الفعل هو الناصب لـ «بين»، فيعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف»(١٢٣).

* * *

هذه هي قضّية الخلاف في إذ الفجائية هل هي اسم أو حرف؟، وقد عرضنا هذه القضية بجوانبها المختلفة، وقد لمسنا من خلال هذا العرض أن لكل رأى دليله، ولكل قول حجته.

وإن كنت أميل الى الرأى الذي يقول: : إنها حرف، لأن معنى المفاجأة كمعنى الاستقبال، والاستقبال يؤدي بحرف السّين وسوف وهو كمعنى التعليل، والتعليل حرف يؤدي معناه باللام، فلم لايكون معنى المفاجأة يؤدي بـ «إذْ»، فيكون حرفاً كغيرها؟

وهناك قضية أخرى تتعلق بـ «إذ» غير قضية الحرفية او الاسمية وهي: قضية وقوعها جواباً لـ «بينا» و «و بينما».

ومن أجل الخلاف حولها، أفردها بالبحث التالي:

قضية وقوع إذ الفجائية جواباً لـ «بينا» و «بينما»

للحريريّ في (درّة الغوّاص) بحث جيد في وقوع إذ التي للمفاجأة بعد بينا أو بينما، لأن القائم في أذهان بعض النحويين أن وقوع إذ هذه بعد: بينا، أو بينما أمر لازم، وضرورة حتمية، وأسلوب واجب بحيث إنه إذْ لم تقع إذْ في جواب: بينا، أو بينما عُدّ هذاالأسلوب ضعيفاً أو قليل الاستعمال، فأراد الحريريّ أن يزيل هذا الوهم، و يبدّد هذا الفهم ليؤكد لهؤلاء النحويين أنه ليس من الضّروريّ أن تقع إذْ جواباً لهذين الظّرفين، بل إن الكثير الشائع أن يأتي جوابهما مجرداً منها وهو خلاف الشائع عند النحويين.

ولطرافه بحثه، وسلامة تدليله، وجمال عرضه أترك للقارىء فرصة الاستمتاع به.

يقول الحريريّ مانصّه: «و يقولون: بينا زيد قام إذ جاء عمرو فيتلقّون «بينا» بـ«إذ»، والمسموع عن العرب: بينا زيد قام جاء عمرو بلا إذْ، لأن المعنى فيه بين أثناء الزمان جاء عمرو، وعليه قول أبي ذؤيب:

بَيْنا تَعَنُّقِه الكُماة ورَوْغِه يَومًا أُتِيح له جَرِىءٌ سَلْفَعُ(١٢٤)

فقال: أتيح، ولم يقل: إذْ أتيح.

وهذا البيت ينشد بجرّ «تعنقه» ورفعه، فمن جرّ جعل الألف في «بينا» ملتحقة لإشباع الفتحة لأن الأصل فيها: «بين»، وجرّ «تعنقه» على الإضافة.

ومن رفع رفعه على الابتداء، وجعل الألف زائدة ألحقت بـ «بين» لتوقع بعدها الجملة كما زيدت «ما» في بينما لهذه العلّة.

وذكر أبو محمد بن قتيبة قال: سألت الرّياشي عن هذه المسألة، فقال: إذا ولي لفظة: «بينا» الاسم العلم رفعت، فقلت ؛ بينا زيد قام جاء عمرو وإنْ وليها المصدر فالأجود الجرّ كهذه المسألة .

وحكى أبو القاسم الآمديّ في أماليه عن أبي عثمان المازنيّ، قال: حضرْت أنا و يعقوب بن السّكيت مجلس محمد بن عبدالملك الزيات، فأفضنا في شجون الحديث الى أن قلت: كان الأصمعي يقول: بينا أنا جالس إذ جاء عمرو فقال ابن السّكيت: هذا كلام الناس، قال: فأخذت في مناظرته، وإيضاح المعنى له، فقال لى محمدّ بن عبدالملك دعْني حتى أبيّن له مااشتبه عليه، ثم التفت إليه، وقال له: مامعنى بينا، فقال: حين، قال: أفيجوز أن يقال: حين جلس زيد إذ جاء عمرو فسكت. فهذا حكم: «بينا». وأماّ بينما فأصلها أيضاً: بين، فزيدت عليها «ما» لتؤذن بأنها قد خرجت عن بابها بإضافة «ما» إليها.

وقد جاءت في الكلام تارة غير ملتقاة بـ «إذ» و «إذا» اللذين للمفاجأة، كما قال الشاعر:

* فبينما العُسْرُ إذْ دارت مياسيرُ * (١٢٥)

وكقوله في هذه القطعة:

وبَينْمَا المْرء في الأحْيَاء مغْتبطٌ إذا هُوَ الّرمْسُ تَعْفُوه الأعاصيرُ

فتلقى هذا الشاعر «بينما» في البيت الأول بـ «إذْ»، وفي الثاني بـ «إذا» وليس ببدع أن يتغير حكم «بين» بضمّ «ما» إليه، لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها، ألا ترى أن: «ربّ» لايليها إلا الاسم، فإذا إتصلت بها «ما» غيرت حكمها، وأولتها الفعل كما جاء في القرآن «ربما يودّ الذين كفروا»(١٢٦). وكذلك «لم» حرف، فإذا زيدت عليها «ما» وهي أيضاً حرف صارت «لمّا» اسماً في بعض المواطن بمعنى: حين نحو قوله تعالى: «ولما جاءت رُسُلنا لُوطاً»(١٢٧)، وهكذا، «قلّ»، و«طال» لايجوز أن يليهما الفعل، فإذا وصلتا بـ «ما» وليهما الفعل كقولك: طالما زرتك،وقلما هجْرتُكَ»(١٢٨).

في ضوء نص الحريري الذي استوعب فيه قضية إذ الفجائية في جواب بينا أو بينما أستطيع أن أقول: إن استدلال الحريري على جواز انفكاك جواب بينا، وبينما من إذْ قد استقاه من نصّ سيبويه حينما مثل سيبويه لـ «إذ» بمثالين، وهما: بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذا نتفخ على فلان.

وعلق سيبويه على هذين المثالين بقوله: «فهذا لما توافقه، وتهجم عليه في حال أنت فيها»(١٢٩).

ومع أن نص سيبويه يجيز أن تقع إذ جواباً لهما، فإن كثيراً من النحويين وعلى رأسهم الأصمعيّ ينكرون هذا، ويقولون: لاحاجة إلى إذ ألا ترى أنك تقول: حين زيد جالس قام عمرو، وبينما بمنزلة: حين، قالوا: وأشعارهم وردت بلا إذْ، ومما استشهدوا به بيت أبي ذؤيب»(١٣٠) الذي سبق ذكره.

والواقع أن سيبويه يؤيده في رأيه، ويسنده في قوله بعض أشعار جاءت على غير نهج أسلوب أبي ذؤيب وإذا كان الأمر كذلك، فلاداعي لإنكار الأصمعي ومن تبعه لهذا الأسلوب، وإنما المنهج السليم أن يقال: جواز ذكر إذ بعد بينا أو بينما وجواز عدم ذكرهما، ومن غير شك فهذا تنوع في الأساليب، واتساع في التعبير، وحرية في الاستعمال.

ومن الشواهد التي تؤيد سيبويه قال الشاعر:

بينما نحن بالكثيب ضُحى إذْ أتى راكب على جمله.(١٣١)

وقول الشاعر:

استقدر اللهَ خَيْراً وارضينّ به فبينما العُسر إذْ دارت مَيَاسيرُ(١٣٢)

ومن ذلك قول حُمَيدٌ الأرقط:

بَيْنا الفتى يَخْبِط في غَيْشاتِه إذْ انتمى الدَّهرُ الى عِفْراته(١٣٣)

وقول القطامي:

فبينا عُمَيرٌ طِامحُ الطَّرْفِ يَبْتَغي عبادَة إذ وَاجَهَتْ أَصْحَم ذَاخَرِ(١٣٤)

وليس هذا الأسلوب خاص بالشّعر، فقد ورد في الحديث :

«بيننا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجلٌ...»(١٣٥).

فهذه الشواهد أدلّه قويّة تُرجّح رأى سيبويه في جواز وقوع إذ الفجائية جواباً لهذين الظرفين.

وليس معنى ذلك أن وجودها في مثل هذه الأساليب ضرورة لابد منها والتزام لابد من المحافظة عليه، وذلك لأنه كما وردت إذ جواباً في بعض الأساليب وردت أساليب أخرى مجرّدة من إذ .

ومن هذه الأساليب بيت أبي ذؤيب السابق.

ومنها أيضاً قوله :

كُنْ كيف شئتِ فقصْرك الموتُ لامُـزْحَـلٌ عـنـه ولافَـوْتُ
بينا غِنى بَيْتٍ وبهجتِه زال الغِنى وتقوّض البيتُ

وقول ابن هرمة في باب النسيب من الحماسة :

بينما نَحْنُ بالبلاكث فالقا ع سِراعاً والعِيسُ تَهوِى هُوِيّا
خَطَرَتْ خَطْرةٌ على القلب من ذكـ ـراكِ وهنًا فما استطعت مُضِيّا(١٣٦)

على أنه يلاحظ أن بيت أبي ذؤيب الذي استشهد به الحريرى على جواز تجرّد جواب «بينا» من إذْ، أضيفت «بينا» فيه للمصدر الذي بعدها وهو: «تعنقه»، ومعنى ذلك أن «بينا» أضيفت إلى الأسماء المفردة. وبعض النحويين لايمنعون ذلك، لأن المصادر فيها معنى الفعل وذلك للحمل على حين كقولك: «بينا قيام زيد أقبل عمرو، أى حين قيام هذا أقبل ذاك»(١٣٧).

ويبين لنا البغداديّ في الخزانةً أنه إذا وقع بعدها اسم جوهر لم يكن إلا رفعاً نحو: بينا زيد في الدار أقبل عمرو لأنها ظرف زمان فلا تضاف إلى جثة كما لا تكون خبراً عنها»(١٣٨).

ومن الجدير بالذكر أن نسجل هنا أن الأصمعيّ «كان يقول : بينا يضاف إلى المصادر خاصة، والنحويون يخالفونه، ويقولون: بينا وبينما عبارتان

للحين، وهما مبهمتان لا تضافان الا إلى الجمل التي تبينها فإذا قلت : بينا أنا جالس طلع زيد فالمعنى: حين أنا جالس أو وقت أنا جالس طلع زيد»(١٣٩).

ومعنى ذلك أن معظم النحويين يمنعون اضافة «بينا» إلى مابعدها فإذا اعترض عليهم ببيت أبي ذؤيب، قالوا: إنّ «رواية النحويين والناس : «بينا تعنقه الكماة، فيرتفع «تعنقه» بالابتداء و يكون خبره مضمراً كأنه قال : بينا تعنقه الأبطال حاصل معهود ومعتمد مألوف أتيح له يوماً رجل جرىء»(١٤٠).

ويجدر بنا، ونحن نعالج قضية اذ الفجائية في جواب بينا و بينما أن نشير إلى أن هناك فرقاً بين الأسلوبين، أو بعبارة أخرى بين الصيغتين، ولانبالغ إذا قلنا قد تتعدد الدلالة، و يتنوع الأسلوب، وذلك ماسنناقشة في النقطة التالية :

الفرق بين «بينا» و«بينما» في الدلالة والاستعمال:

إن أصل «بين» كما يقول الرّضي: «أن يكون مصدراً بمعنى : الفراق، فتقدير: جلست بينكما أى مكان فراقكما، وتقدير: فعلت بين خروجك ودخولك أى زمان فراق خروجك ودخولك، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه»(١٤١).

ومن هذا النص نتبين أن : «بين» تستعمل في المكان والزمان، لأنه: «إنْ أضيف إلى الأمكنة أوجثث غيرها فهو للمكان نحو: بين الدار، و بين زيد وعمرو.

وإن أضيف إلى الأزمنة فهو للزمان نحو: بين يوم الجمعة والأحد. وكذا إن أضيف إلى الأحداث نحو: بين قيام زيد وقعوده إلاّ أن يراد به مجاز المكان نحو قولك: زيد بين الخوف والرجاء، استعيرت لما بين الحدثين مكاناً، فلهذا وقع «بين» خبراً عن الجثة»(١٤٢).

وتوضيح العبارة الأخيرة في نصّ الرّضي: أن بين الحدثين: الخوف

والرجاء مدة زمنية، وقد استعير هذا الزمن الواقع بين الحديثن للمكان، فكأن مابين الحدثين، الخوف والرجاء مكان، وهذا المكان متمثل في : «بين» .

ومن أجل وقوع «بين» مكاناً على جهة الاستعارة صحّ أن تكون خبراً عن الذوات التي عبرّ عنها الرّضي ّبالجثة، وذلك لأن ظرف الزمان لايقع خبراً عن الذوات فلا نستطيع أن نقول مثلاً: محمد الساعة ولاخالد اليوم، على حين يمكننا أن نقول: المذاكرة الساعة، والصوم اليوم، وهذا بسبب أن ظرف الزمان لايقع خبراً للذوات، وإنما يقع خبراً لأسماء المعاني، و بخلاف ذلك ظرف المكان الذي يقع خبراً عن الذوات مثل الجامعة أمامك، وخبراً عن المعانى مثال: الاستعداد عندك.

و يضيف الرّضي حقيقة أخرى لـ «بين» حينما يقرر أن : «بين» حينما تلحق بها الألف لتكون: «بينا» أو «ما» لتصير: «بينما» لا تكون إلا للزمان حينما تضاف إلى الجمل، لأنه لايضاف من ظروف المكان إلى الجمل إلاّ حيث.

قال الرضي: «وأماّ إذا كفت بـ «ما» أو الألف وأضيف إلى الجمل لايكون إلا للزمان لما تقدم أنه لايضاف من المكان الي الجمل الاّ حيث»(١٤٣).

وأما الفرق بين: «بينا» و «بينما» فهو كما يقول اللسان: قال أبو عمرو:(١٤٤) سمعت المبرّد يقول: إذا كان الاسم الذي يجيء بعد «بينا» اسما حقيقياً رفعته بالابتداء، وان كان مصدراً خفضته و يكون: «بينا» في هذا الحال بمعنى ؛ بين . قال : فسألت احمد بن يحيى عنه، ولم أعلمه قائله، فقال هذا الدّرّ»(١٤٥).

وأما بينما فإن الأمر فيها يختلف عن «بينا» وذلك لأن الاسم بعدها مرفوع دائماً سواء كان اسم ذات أو اسم معني.
قال في اللسان: «وأما بينما فالاسم الذي بعده مرفوع وكذلك المصدر»(١٤٦).

في ضوء هذين النصين نصل الى الحقائق الآتية بالنسبة لهاتين الصيغتين:

أ ـــ مابعد «بينا» إن كان اسماً حقيقياً و يعنى بالاسم الحقيقي المقابل لاسم المعنى ـــ رفع هذا الاسم .

ب ـــ إن كان مابعد «بينا» اسم معنى جرّ بالإضافة وحينئذ تكون «بينا» بمعنى «بين»، وإذا كانت كذلك فانها تأخذ حكم: بين في الإضافة . و بين كما علمنا «لايضاف إلا لمايدل على أكثر من الواحد، أوما عطف عليه غيره بالواو دون سائر حروف العطف نحو: المال بين القوم، والمال بين زيد وعمرو»(١٤٧)

وظاهر الأمر أن «بينا» بالألف لا تضاف إلى ماتضاف إليه «بين» لأن «بين» إذا أضيف إليها الألف لا تكون إلا للزمان، وإضافة مايدل على الزمان إلى الجمل أمر مقررٌ في الأساليب العربيّة، وجائز استعمالا مثل : أتيتك زمن الحجاج أمير، أو أوان الخليفة عبدالملك.

اما بين كما يقول الرّضى في نص سبق ذكره ـــ إنْ أضيف إلى الامكنة فهو للمكان، وإن أضيف إلى الأزمنة فهو زمان.

حـ ـــ إذا كانت الجملة مبدوءة بـ «أينما» فالاسم الذي بعدها مرفوع دائماً.

هذه هي أهم الفروق بين «بينا» و «بينما»، وقد عرفنا من قبل أن أصل هاتين الصيغتين: «بين»، وبإضافة اللاحقتين الألف و «ما» عليها تغير الحكم من الناحية الوظيفية، ومظاهر هذا التغير مايأتي:

أ ـــ وقوعهما في أول الجملة، لأنهما ظرفان يبتدأ بهما.
ب ـــ أن يكون لهما جواب، مقرون بـ «إذ» أو غير مقرون.
٣ ـــ أن تضافا إلى الجمل

وفي هذا التغيير في الحكم، والدلالة، والوظيفة يقول الحريرى: «ومَنْ جَعل الألف زائدة ألحقت بـ «بين» لتوقع بعدها الجملة، كما زيدت «ما» في بينما لهذه العلة»(١٤٨).

ولم يكتف الحريرى بهذه العلة بل أضاف إليها دليلاً آخر حينما يقول: «وليس ببدع أن يتغيرحكم «بين» بضم «ما» إليه، لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها، ألا ترى أن : «رب» لايليها إلا الاسم، فإذا اتصلت بها «ما» غيرت حكمها، وأوليتها الفعل كما جاء في القرآن: «ربما يود الذين كفروا»(١٤٩).

وكذلك : «لم» حرف، فإذا زيدت عليها «ما» وهى أيضاً حرف صارت «لمّا» اسماً في بعض المواطن بمعنى: حين نحوقوله تعالى: «ولما جاءت رُسُلنا لوطا»(١٥٠).

وهكذا، «قلّ» و «طال»، لايجوز أن يليهما الفعل، فإذا وصلتا بـ «ما» وليهما الفعل كقولك: طالما زرتك، وقلما هجرتك»(١٥١).

وقبل أن ننهى الحديث عن إذ التي للمفاجأة أحب أن أشيرالى خطأ مشهور لايسلم منه كثيرمن المثقفين حتى الخاصّة، فقد درجوا أن يقولوا مثلا: العرب مختلفون بينما الأعداء متفقون،وهو أسلوب لا تعرفه العربية، لأن «بينا» و «بينما» تقعان في أول الجملة حيث يبتدأ بهما، ولا تقعان في وسط الكلام. والصواب أن يقولوا في مثل هذا التعبير:

العرب مختلفون على حين الأعداء متفقون.

ج ــ إذْ الزّائدة :

هل وقوع إذْ زائدة حقيقة مسلمّ بها في الدراسة النحوية؟
الواقع أنها قضية ثار حولها الجدل، واحتدم النزاع، وتصارعت الأفكار، ولعل أول من فتح باب هذه القضّية إمام اللغويين والنحويين أبو عبيدة معمر بن المثنى، فقد ادّعى أن إذ تقع زائدة.

ومعنى زيادتها أنها لغو لاتحمل معنًى، ولا تعطى بياناً، ولا تفيد شيئاً، وهذا أمر غريب، وغريب حقاً من أبى عبيدة أن يقول ذلك، لأن إذْ في أصل

وضعها جاءت لمعنى، ولو حكمنا باسميتها، وهو الكثير الغالب فإنه من الخطأ أن نقول بزيادتها في حالة الاسمّية، لأن أقرب تعريف للاسم في النّحو: هو اللفظ الدّال على معنى، فكيف إذن يجعلها أبو عبيدة لتصبح بلامعنى، وبخاصة في كتاب الله.؟

ولنترك أبا عبيدة يعرض رأيه في هذه القضية:

يقول أبو عبيدة في قوله تعالى: «إذْ قالت امرأة عمران ربّ، إني نَذَرْتُ لك ما في بَطْني مُحّرراً، فتقَّبلْ منّي»(١٥٢).

قال الفخر الرازي: قال أبوعبيدة: إنها زائدة لغواً، والمعنى: قالت امرأة عمران، ولاموضع لها من الإعراب»(١٥٣).

وكرّر أبو عبيدة القول بزيادتها في موضع آخر، فقد قال في قوله تعالى: «وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة»(١٥٤).

قال أبو جعفر الطبريّ: «زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويل قوله: وإذْ قال ربك: وقال ربك، وأن: إذْ من الحروف الزائدة، وأن معناها الحذف»(١٥٥).

ومن غير شك أن قائل ذلك في نصّ الطبري هو أبوعبيدة، لأن الفخر الرازى صرح باسمه في النص الذي سقته قبل نصّ الطبري.

وموضع التساؤل هو لماذا لم يصرح بذكره الطبريّ كما صرح بذكره الفخر الرازى؟ يبدو لى أن الطبري تجاهل ذكر اسمه لسخافة رأيه في قضية زيادة إذْ، وأنه في نظر الطبريّ لم يكن على قدر كبير من العلم يجعله يصرّح باسمه، وإلاّ فما سرّ هذا التعبير الذى يحمل الاستخفاف حينما يقول: «زعم بعض المنسوبين إلى العلم» إن كلمة: المنسوبين إلى العلم هي الاستخفاف بعينه إن لم تكن تحمل معنى الاستخفاف.

والواقع أن الطبري لم يكن المنفرد بين العلماء في هذا الرأى، لأنه يبدو لى أن أباعبيدة وإن كان كما يقول يزيد بن مرّة: «ماكان أبوعبيدة يفتّش عن

علم من العلوم إلا كان مَنْ يفتّشه عنه يظن أنه لايحسن غيره، ولايقوم بشيء، أجودَ من قيامه به»(١٥٦) أو كما يقول أبو نواس عنه: «أديم طُوِيَ على علم»(١٥٧) ــ ليس له باع طويل في علم العربية لأنه كما يقول أبو قتيبة: كان الغريب أغلب عليه وأيام العرب وأخبارها»(١٥٨) والعلم بالغريب غير العلم بالتراكيب. والنص المؤيد لرميه بالضعف في النحو أو التراكيب العربيّة ماذكره أبو حاتم حينما قال عنه:

«وكان مع علمه إذا قرأ البيت لم يقم إعرابه، و ينشده مختلف العروض»(١٥٩) ولاشك أن هذا الضعف في النحو هو الذي حمل الطبريّ على أن يتجاهل اسمه، ويجعله منسوباً إلى العلم، ولم يجعله من أهل العلم. على أية حال، فإن عبارة الطبري تحمل في طياتها الغض من قدر أبى عبيدة في مجال النحو والإعراب .

نقد رأى أبي عبيدة :

نقد الزجاج :

قال الزجاج : «لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً، لأنه لايجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى، ولايجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة»(١٦٠).

نقد الطبريّ :

قال الطبري: «والأمر في ذلك بخلاف ماقال، وذلك أن إذْ حرف يأتي بمعنى الجزاء، و يدلّ على مجهول من الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى في الكلام»(١٦١).

و بعد نقد الزجاج والطبري لرأى أبى عبيدة، وإنكار زياد إذ في الآيتين نعرض لأدلة القائلين بعدم زيادة إذْ ، وأنها ماوضعت في الكلام إلا لتؤدي معنى من المعاني.

ونتناول أراءهم في الآية الأولى وهى : «وإذا قالت امرأة عمران» الخ ثم رأى الطبري في الآية الثانية وهى: «وإذ قال ربك للملائكة» وسأحاول أن أبدى رأيي في هذه القضية بعد ذلك إن شاء الله:

ـــ رأى المبرّد في الآية الأولى :

يرى المبرّد في الآية الأولى وهى آية آل عمران أنّ إذْ معمول الفعل محذوف تقديره: اذكر، وتبعه الأخفش حيث وافق على رأيه، وقدّر تقديره، قال الفخر الرازى مانصه: «قال الأخفش والمبرّد : التقدير: اذكر إذ قالت امرأة عمران»(١٦٢).

رأى الزجاج :

يرى الزجاج : أن التقدير ليس «اذكر« كما يرى المبرّد والأخفش، وإنما هو: اصطفى المذكورة قبل «إذْ ».. ونص رأيه كما ذكره الفخر الرازى «قال الزجاج : التقدير: واصطفى آل عمران على العالمين إذ قالت امرأة عمران»(١٦٣)

نقد رأى الزجاج :

طعن ابن الأنباريّ في رأى الزّجاج، وقال : «إن الله تعالى قرن اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح .

ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحاً قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال: إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه»(١٦٤).

و يدافع الفخر الرآزى عن رأى الزّجاج، وعن دفع الاعتراض الذي وجه إلى رأيه قائلاً :

ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده وظهور طاعاته، فجاز أن يقال: إن الله اصطفى آدم عند وجوده ونوحاً عند وجوده، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام»(١٦٥).

رأى آخر:

يرى بعض العلماء أن إذْ في الآية متعلق بقوله تعالى: «سميع عليم» ولم ينص الفخر الرازى على أصحاب هذا الرأى، و يبين لنا مَنْ هم بدلاً من كلمة: «بعضهم».

قال الفخر: «قال بعضهم: هذا متعلق بما قبله، والتقدير: والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران هذا القول»(١٦٦).

و يرى الفخر أن هذا الرأى يحمل في طياته اعتراضاً أو سؤالاً، وقد سجل هذا الاعتراض أو هذا السؤال وأجاب عنه.

قال الفخر: «فإن قيل: إن الله سميع عليم قبل أن قالت امرأة عمران هذا القول، فما معنى هذا التقييد؟

قلنا: إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيدٌ بوجود ذلك الكلام، وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك، والتغير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات»(١٦٧).

موقع إذْ في الآية الثانية وهى آية البقرة:

أنكر أبو جعفر الطبرى بشدة وقوع إذ زائدة في القرآن الكريم، وحمل على أبن عبيدة في قوله بذلك، لأن القرآن الكريم لايوجد فيه كلام زائد، لأن كل كلمة من كلماته تؤدي معنى، لأنها سيقت من أجل هذا المعنى، فالقول بزيادة بعض الكلمات في القرآن كـ «إذ» لغو من القول، وضرب من الهذيان، ولم يكتف أبو جعفر بالنقد العام، ولكنه نقد نقداً علميًا، مبيناً رأيه في إذْ هذه، وأنها جاءت لغرض، وسيقت لمعنى، وسجلت لهدف.

قال: لو أبطلت إذْ، وحذفت من الكلام لاستحال عن معناه الذي هو به وفيه «إذْ».

فإن قال قائل : فما معنى ذلك؟ وما الجالب لـ «إذ» إذا لم يكن في الكلام قبله مايعطف به عليه.

قيل له : قد ذكرنا فيما مضى أن الله جل ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»(١٦٨) بهذه الآيات، والتى بعدها فو بخهم مقبحاً لهم سوء فعالهم، ومقامهم على ضلالهم مع النعم التي أنعمها عليهم وعلى أسلافهم، ومذكرهم بتعديد نعمه عليهم وعلى أسلافهم بأسَهُ أن يسلكوا سبيل من هلك من أسلافهم في معصية الله، فيسلك بهم سبيلهم في عقوبته، ومعرّفهم ماكان منه من تعطفه على التائب منهم استعتاباً منه لهم، فكان مما عدّد من نِعَمِه عليهم أنه خلق لهم مافى الأرض جميعاً، وسّخرلهم مافى السموات من شمسها وقمرها، ونجومها، وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم، ولسائر بنى آدم معهم منافع، فكان في قوله: «كيف تكفرون بالله، وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يميتكم، ثم يحيكم، ثم إليه ترجعون معنى: اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم إذ خلقتكم، ولم تكونوا شيئاً، وخلقت لكم مافى الأرض جميعاً، وسويت لكم مافي السماء، ثم عطف بقوله: «وإذ قال ربك للملائكة» على المعنى المقتضى بقوله: كيف تكفرون بالله إذ كان مقتضياً ما وصفت من قوله: اذكروا نعممتى إذ فعلت بكم وفعلت، واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذ قلت للملائكة: إنى جاعل في الأرض خليفه».

ويسترسل الطبرى في الدفاع عن رأيه، وتقديم السّند لدليله، وأن ماعرضه من رأى وماقدمه من الدليل ليس بعيداً عن كلام العرب، ولاغريباً عن نسجهم في كل مايقولون.

يقول : فإن قال قائل : فهل لذلك من نظير في كلام العرب نعلم به صحّة ماقلت، قيل: نعم، أكثر من أن يحصى.

من ذلك قول الشاعر :

أجدّك لن ترى بشُعَيْلبات ولابيدانَ ناجيةً ذُمُولا

ولامستدارك والشمس طِفْلٌ ببعض نواشغ الوادى حَمُولا(١٦٩).
فقال: «ولامتدارك»، ولم يتقدمه فعل بلفظه يعطف عليه، ولاحرف معرب إعرابه فيرد: «متدارك» عليه في إعرابه، ولكنه لما تقدمه فعل مجحود بـ «لن» يدل على المعنى المطلوب في الكلام، وعلى المحذوف استغنى بدلالة ماظهر منه عن إظهار ماحذف، وعامل الكلام في المعنى والإعراب معاملته أن لو كان ماهو محذوف منه ظاهراً، لأن قوله:

* أجدك لن ترى بثعيلبات *

بمعنى: أجدك لست براء، فرد: «متداركاً» على موضع: «ترى» كأن: لست والباء موجودتان في الكلام.

فكذلك قوله: «وإذ قال ربك للملائكة» مع مابعده من النعم التي عددها عليهم، ونبههم على مواقعها ردّ «إذْ» على موضع: «وكنتم أمواتاً فأحياكم، لأن معنى ذلك: اذكروا هذه من نعمي، وهذه التي قلت فيها للملائكة، فلما كانت الأولى مقتضية «إذْ» عطف «وإذ» على موضعها في الأولى، كما وصَفْنا من قول الشاعر في: «ولامتدارك»(١٧٠).

واضح إذاً من نص الطبرى في الدفاع عن رأيه، والإنكار على من ادّعى زيادة إذْ أنه سلك مسلكاً علميّاً حيث عرض لشبهة أبى عبيدة في أنّ إذْ في الآية زائدة أو لغو، ومؤدى هذه الشبهة أن إذْ لم يكن قبلها كلام تعطف عليه فوجودها بعد واو العطف كلا وجود.

أجل أن إذْ وقعت بعد واو العطف في آيات أخر، ولكن لم يدع أبو عبيدة زيادتها في هذه الآيات، لأن ماقبلها من الكلام يمكن أن يعطف عليه بالواو التي بعدها إذْ.

من هذه الآيات: قوله تعالى: «وإذْ نجيناكم من آل فرعون»،(١٧١) إنّ إذْ «في هذه الآية لم يستطع أبو عبيدة أو غير أبى عبيدة أن يقول بزيادتها لأنها

سبقت بـ «اذكروا» الذي سبق في قوله تعالى : «يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم»(١٧٢)، ومن هنا نجد القرطبيّ يقول :

«إذْ في موضع نصب عطف على : «اذكروا نعمتي» ، وهذا ومابعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم، أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم»(١٧٣). ومنها : قوله تعالى : «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم»(١٧٤)، أي واذكروا إذ فرقنا بكم البحر، فـ «إذ» في الآية معطوفة على إذ السابقة في قوله تعالى: «واذكروا نعمتي».

ومنها : قوله تعالى : «وإذْ واعدنَا موسى أربعين ليلة»(١٧٥) يقال في إذْ هذه ماقيل في إذْ قبلها.

ومنها : قوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه»(١٧٦) فـ «إذ» معطوفة على ماسبق حيث تقدم الفعل: «واذكروا» في قصه واحدة المخاطب فيها بنو اسرائيل.

ومن أجل ذلك كانت شبهة أبي عبيدة حيث لم يتقدم «وإذ» التي فى قوله تعالى: «واذ قلنا للملائكة اسجدوا» (١٧٧) مايعطف عليه، ومن هنا قال ما قال حول زيادتها.

ولو تدبر أبوعبيدة في الآيات التي قبلها لعلم أن الآيات السابقة لـ «واذ» كلها تذكر بنعم الله تعالى، وتنكر على الكفار والمعاندين كفرهم بالله مع وجود هذه النعم التي تملأ السموات والأرض.

ومن دون شك فإن هذه الآيات تحمل معنى : واذكروا هذه النعم إذ فعلت لكم كذا وكذا أو على حد تعبير الطبرى : «إذ فعلت بكم وفَعَلْتُ»، كذلك فإنها إلى جانب ذلك تحمل معنى: واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذْ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ».

على أن نقد أبى عبيدة في زيادة إذْ في هذه الآية ليس مقصوراً على الطبريّ، فقد شاركه في نقد هذا الرأى الزجاج والنحاس وجميع المفسرين، كما نقده الزجاج في قوله بزيادة «إذْ » في آية آل عمران : «إذْ قالت امرأة عمران» وقد سجلنا رأيه في هذا الموضع الذي سبق ذكره.

أمـا في هذه الآية وهي : «وإذ قال ربك للملائكة» فإن القرطبيّ شارك الطبرى رأيه في هذا النقد، بل ورأيه في التوجيه السابق، والتقدير الذي ذكرناه.

قال القرطبيّ :

«وقال معمر بن المثنى أبوعبيدة: إذْ زائدة، والتقدير: وقال ربك، واستشهد بقول الأسود بن يعضر:

فإذ وذلك لامهاة لذكْره والدهر يُعْقب صالحاً بفساد(١٧٨)

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس، وجميع المفسرين

قال النحاس: وهذا خطأ لأن : «إذْ» اسم وهي ظرف زمان ليس مما تزاد.

وقال الزّجاج : هذا اجْترام من أبي عبيدة».

ومضى القرطبي يعرض رأيه في حلّ اشكالها في هذه الآية قائلا : «ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم، فالتقدير: وابتدأ خلقكم إذ قال فكان هذا من المحذوف الذي دلّ عليه الكلام كما قال:

فإن المنية مَنْ يَخْشها فسوف تصادفه أيْنما

يراد : أينما ذهب

ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال. وقيل: هو مردود إلى قوله تعالى : «اعبدوا ربكم الذي خلقكم» (١٧٩)، فالمعنى الذي خلقكم إذ قال ربك للملائكة.»(١٨٠).

رأى ومناقشة :

أعتقد أننا أشبعنا القول في «إذْ» التي في البقرة من قوله تعالى: وإذ قال ربّك للملائكة» و بّينا خطأ أبي عبيدة في رأيه، والردود التي نُقِد بها، و بقى أن نضيف ـــ إلى ماذكره المفسرون في آية آل عمران: «إذ قالت امرأةُ عمران ربِّ إني نذرت لك مافي بطني محرّراً [آل عمران/٣٥] ـــ رأياً آخر، تقتضيه بلاغة

القرآن، أو بعبارة أخرى بلاغة الحذف، وذلك لأن هناك آيات عديدة وردت فيها «إذ» بدون أن يذكر معها فعل سابق تتعلّق به، و بخاصة في أوائل القصص القرآنية وقد درج علماء التفسير أن يقدروا لـ «إذْ » هذه فِعلاً تعلق به، و يفضلون أن يكون الفعل أمراً من «ذكر» للواحد: «اذكر»، وللمخاطبين «اذكروا»، ولهذا علة أو سبب فان آيات من القرآن الكريم ورد فيها هذا الفعل بالذات . من ذلك قوله تعالى : —

١ — واذْكُروا إذْ جَعَلكُم خُلَفاء من بعد قَوْم نوح»(١٨١)

وفيها قوله تعالى :

٢ — «واذْكُروا اذْ كُنْتم قليلاً فكثركم»(١٨٢).

ومنها قوله تعالى :

٣ — واذكروا اذ أنْتم قليلٌ مُسْتَضْعَفُون في الأرض »(١٨٣).

ومنها قوله تعالى :

٤ — «واذكُرفي الكتاب مريم إذْ انْتَبَذَتْ من أهْلِها مكاناً شرقياً»(١٨٤)

ومنها قوله تعالى :

٥ — «يأيها الذين امنوا اذْكُروا نِعْمَة الله عليكم إذ جَاءتْكُم جُنُود»(١٨٥).

فإذا ماوردت بعض الآيات التالية من دون اذكر» أو اذكروا» قدّر هذا الفعل المحذوف».

من ذلك قوله تعالى :

١ — إذْ قال اللّهُ ياعيسى بن مَرْيم اذْكُر نعمتي عَلَيْك وعلى والدِتَك»(١٨٦)

ومن ذلك قوله تعالى :

٢ — إذْ قال الحوارِيُّون ياعيسى بن مريم هل يستطيع رَبُّك أن يُنَزِّل علينا مائدة.»(١٨٧).

ومن ذلك قوله تعالى :

٣ — «إذْ جعل الذين كفروا في قلُوبهم الحَمية حَمّية الجاهلية»(١٨٨).

وماذكرناه في هذا الرأى أشار اليه أبو البقاء في الكليات حيث يقول :

«كل ماورد في القرآن (وإذ) فـ (اذكر) فيه مضمر أى اذكر لهم أو في نفسك كيفما يقتضيه صدر الكلام.

وإذ منصوب به، وعليه اتّفاق أهل التفسير مع أن القول واقع فيه ولم يجعلوه ظرفاً له بل مفعولاً به على سبيل التجوز مع أنه لازم الظرفية، فعدلوا عن الحقيقة إلى المجاز، لعدم إمكان اعتبار مظروفية المضاف إليه»(١٨٩).

وقبل أن أنتهى من بحث «إذْ » الزائدة في القرآن الكريم أحب أن أمر سريعاً على قضية الزيادة في القرآن الكريم، لأن الآراء التي سبقت ظاهرها منع هذه الزيادة، ورَمْيُ من قال بها بالجهل والإجْرام على حد تعبير الزجاج عن ابى عبيدة حينما قال القول الذى سّجلناه فيما سبق: «هذا اجترام من أبى عبيدة» .

قضية الزيادة في القرآن الكريم :

الواقع هناك آيات قرانية كثيرة زيدت فيها حروف، ولاتحتمل التأويل، لأن وجه الزيادة فيها أوضح من أن ينكر، وأشهر من أن يجحد وسنعرض هذه الحروف التي زيدت مؤكدين أن ذلك لايخل ببلاغة القرآن، بل لايزرى بقدسيته، ولاتعدّ هذه الزّيادة جرأة على كتاب الله، وانتساب الزيادة إليه».

أولا : زيادة الباء :

ــ من ذلك قوله تعالى : «فإن آمنوا بِمِثْل ما آمنتُم به فقد اهْتَدَوْا»(١٩٠) فإن التقدير: فان أمنوا مثل ما آمنتم به.

ــ ومن ذلك قوله تعالى : «وَأَنْفِقُوا في سبيل الله ولا تُلْقوا بأيديكُمْ»(١٩١). أى لا تلقوا أيديكم، وعبرّ بالأ يدى عن الذوات.

ــ ومن ذلك قوله تعالى : «جَزاُء سَيِّئة بِمِثِلها»(١٩٢)، فالمعنى على رأى الأخفش: جزاء سيئة مثلها، وكأنه استدل على ذلك بالآية الآخرى:
«وجزاء سَيِّئةٍ سيئةٌ مِثْلُها»(١٩٣)

ـــ ومن ذلك : «وكفى بالله شهيداً»،(١٩٤) «وكفى بالله حسيباً»(١٩٥)، «وكفى بجهنّم سعيراً»(١٩٦).

ـــ ومن ذلك قوله تعالى : «أَسْمِع بهم وأَبْصِر»(١٩٧)، فإن المعنى : صاروا ذوى بصروسمع.

قال الزّجاج : «وأماّ الدّلالة على زيادتها في قولها: أكرم به، وقوله: «أسمع بهم وأبصر»، فهى أن الفعل لايخلو من أن يكون للمخاطب أو الغائب فلو كان للمخاطب لثنى فيه الفاعل تثنيته للمخاطب، وجمع بجمعه، وأنث لتأنيثه، فلما أفرد في جميع الأحوال، ولم يعتبر به الخطاب علم أنه ليس للمخاطب، وإذا لم يكن له ثبت أنه للغائب»(١٩٨).

ـــ ومن ذلك قوله تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُم»(١٩٩)، وما هو بمزحزحه»(٢٠٠)، وما أنتم بمؤمنين»(٢٠١).

وفي قوله تعالى : «بأيِّكُم المفتون»(٢٠٤)، فقد قيل: الباء زائدة، والتقدير: أيكم المفتون.

ومن زيادة الباء التي لاتحتمل التأويل قوله تعالى :

«ألم يَعْلَم بأنَّ اللّه يرى»(٢٠٥)، والتقدير: ألم يعلم أن اللّه يرى: لقوله تعالى في أية أخرى: «و يعلمون أن الله»(٢٠٦).

وفي قوله تعالى : «وهزّي اليك بِجِذْعِ النّخلة»(٢٠٢)، فقد قيل: الباء زائدة والتّقدير: وهزّي إليك جذع النخلة.

وفي قوله تعالى : «تَنْبُت بالدُّهن»(٢٠٣)، فقد قيل التقدير: تنبت الدّهن بزيادة الباء.

وقوله تعالى: «أقرأ باسم ربّك»(٢٠٧)، أى اقرأ اسم ربك لقوله تعالى في آية أخرى: «فإذا قرأناه»(٢٠٨).

ثانيا : زيادة من :

وكما زيدت الباء في بعض الآيات زيدت «مِنْ» ومن أمثلها:

ـ قوله تعالى : «مآلَكُمْ مَنْ إلهٍ غيْرُهُ»(٢٠٩) أى مالكم إلهٌ

ـ قوله تعالى : «هل من خالقٍ غَيْرُ اللّهِ »(٢١٠)

ـ قوله تعالى : «وما من إلهٍ الاّ اللّه »(٢١١)

ـ قوله تعالى : «وما مِنْ إلهٍ الاّ الهٌ واحدٌ »(٢١٢)

ـ قوله تعالى : «وكُلوا مِما رَزَقكُم اللّهُ حَلالا طيباً »(٢١٣)

ـ قوله تعالى : «فكُلوا مِما أمْسَكْنَ عَليكم»(٢١٤)

ثالثا : زيادة اللام :

من ذلك :

ـ قوله تعالى : «للّذِين هم لِرَبِّهِم يرهبون»(٢١٥)

ـ قوله تعالى : «إنْ كُنْتم للرُّؤيا تَعْبرُون»(٢١٦).

ـ قوله تعالى : «رَدِفَ لكم بَعْضُ الّذى تَسْتَعْجلون»(٢١٧)

ـ قوله تعالى : «وإذْ بَوَّأنا لإبْراهيم مكانَ البيت»(٢١٨)

:

ثالثاً : زيادة الواو:

من ذلك :

ـ قوله تعالى : «حتى إذا فُتِحتْ يأجوج ومأجوج»(٢١٩) جوابه قوله: «واقترب الوعد الحق» .(٢٢٠) قال الفراء : الواو مقحمة.(٢٢١)

ـ قوله تعالى : «فلما أسلما وتله للجبين»(٢٢٢) الواو زائده، أى تلّه.

ـ قوله تعالى : «إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت»(٢٢٣). الواو مقحمة»(٢٢٤).

رابعاً : زيادة «لا»

من ذلك :

ـــ قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم ولاالضالين »(٢٢٥).

قال : (لا) في قوله : «ولا الضالين» زيادة، «وجاءت زيادتها لمجيء (غير) قبل الكلام، وفيه معنى النفي، ألا ترى أن التقدير: لامغضوباً عليهم ولا الضالين، وكما جاء: «وما يَسْتوِي الأَحْيَاءُ ولا الأموات»،(٢٢٦)، فكرر «لا» وهي زيادة، وكذلك هذا»

ـــ ومن ذلك :

ـــ وقوله تعالى : «وما يُشْعِرُكُم أنّها إذا جاءت لايؤمنون»(٢٢٧). فـ«لا» زائدة والمعنى : ومايشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون .

ـــ ومن ذلك :

ـــ قوله تعالى : «وحرامٌ على قرية أهلكناها انّهم لايُرجعون»(٢٢٨).

ـــ قالوا «لا» زائدة، والتقدير: «وحرام على قرية أهلكناها رجوعها إلى الدّنيا.

ـــ ومن ذلك :

قوله تعالى : «لئلاَّ يَعْلم أهْلُ لكتاب»(٢٢٩)، قالوا : التقدير : ليعلم أهل الكتاب، و«لا» زائدة، أجمعوا على هذا(٢٣٠).

ـــ ومن ذلك :

ـــ قوله تعالى : «ما مَنَعك ألاّ تسْجُدَ إذْ أمَرْتُك»، والتقدير: مامنعك أن تَسْجُد، فـ«لا» زائدة(٢٣١).

خامساً : زيادة «ما»

من ذلك :

ـــ قوله تعالى : «فبما رحمة من اللّه»(٢٣٢).

ـــ قوله تعالى : «فبما نَقْضِهم ميثاقَهُم وكفرهِمْ» (٢٣٣)

ـــ قوله تعالى : «فبما نَقْضِهم مِيثَاقَهُمْ لعنّاهُمْ»(٢٣٤)

ـ قوله تعالى : «عمّا قليل ليُصْبحُنَّ»(٢٣٥) أى عن قليل.
ـ قوله تعالى : «جندما هنالك»(٢٣٦) أى جند هنالك(٢٣٧).

و بعد، فهذه نصوص سقتها لأثبت في ضوئها أن حروف الزيادة تقع في القرآن وليس وقوعها اعتباطاً أو جزافاً، لأن الأسلوب يقتضيها، حقاً إن زيادتها من مقتضيات المعنى ولكن، وجودها أيضاً من مقتضيات الأسلوب، وفرق بين المقتضى في مجال المعنى، والمقتضى في مجال الأسلوب.

وذلك أن الأسلوب هو من نسج العربية، والعربيّة لا تنكر مثل هذه الأساليب التي تزاد في الحروف، ولا تستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم جاء على أساليب لم يعرفها العرب، وإلاّ فما الداعي للتحدي، إذا كان أسلوبه مختلفاً ونمطه متبايناً، وطريقته في التعبير على غير نسق تعبيرهم.

إنّ هذه الحروف زائدة في المعنى، ولكنها طريقة أسلوبيّة جرى عليها القرآن الكريم وفق بعض الاساليب العربية الشائعة والقرآن من جنس مايتكلمون، وأسلوبه جار على أساليب مايقولون، ومن هنا كان تحدّيه لهم أتمّ، وعجزهم عن مجاراته أبلغ. ولذلك كان ابن بحر غير مستوعب لقواعد العربيّة حينما ادعى أن هذه الزيادة شذوذ و «الأولى ألا يكون في كلام الله شذوذ، ومايستغنى عنه»(٢٣٨).

وهذا الادعاء ذكره ابن بحر حينما تعرّض بعض المفسّرين للآية القرآنية «لئلاّ يَعْلَم أهلُ الكتاب»(٢٣٩)، وقالوا : إنّ «لا» زائدة، والقائل وإن كان مجهولاً عند صاحب إعراب القرآن ـ فقد كشف عنه القرطبى حينما تعرض لهذه الآية فقال: إن «لاصلة زائدة مؤكدة» قاله الأخفش.

وقال الفراء : معناه : لأن يعلم و«لا» صلة زائدة في كل كلام دخل عليه .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت : لئلا يعلم أهلُ الكتاب أى لأن يعلم أهل الكتاب.
وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج متَنَبِّيٌّ يقطع الأيدى والأرجل فلما

خرج من العرب كفروا فنزلت : لئلاّ يَعْلم» أى ليعلم أهل الكتاب»(٢٤٠) ومع اتفاق أهل اللغة والنحو وقدامى المفسرين أمثال قتادة، وابن مجاهد فإن ابن بحر هذا أنكر هذه الزيادة، واعتبرها شاذة، والشذوذ في كتاب الله سوء أدب، ومحض افتراء، وكتاب الله منزه عن هذه الشذوذ ونحن نحمد لابن بحر غيرته على كتابه الله، ولكن لانحمد له إنكاره هذه الزيادة واعتبارها شذوذاً، وقبل أن نردّ عليه ناقدين رأيه نحب أن نعرف من هو «ابن بحر هذا»؟ في هامش إعراب القرآن المنسوب للزجاج الذى حققه الأستاذ الفاضل ابراهيم الأ بيارى يميط اللثام عنه فيقول: «هو أبو عثمان بين بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ، ومن كتبه: «مسائل القرآن» ولعله هو الذى منه النقل هنا».(٢٤١).

وفي رأيي أن ابن بحر هذا أشك أنه أبو عثمان بن بحر الجاحظ لأمرين:
الأمر الأ ول أن الجاحظ ليس جاهلاً بقواعد العربية كما يدعي صاحب إعراب القرآن، فالجاحظ موسوعة في كل ضروب المعرفة السائدة في عصره، وليس من المعقول أن يكون الجاحظ جاهلاً بقواعد العربية ، وهو يعلم مكانتها في الأدب، وقدرها في الفكر، إنها الوسيلة الأ ولى لتحصيل المعرفة.

الأمر الثاني : أن الجاحظ مشهور في كتب التراث، وبين علماء عصره بالجاحظ ، وليس بابن بَحْر.
على أية حالة كانت . إن ردّ صاحب اعراب القرآن على ابن بحر في ادعائه أن حروف الزيادة في القرآن شذوذ رَدٌّ مفحم، وقوى، لأنه مؤيد بالحجج مسنود بالبراهين.
قال : «وحمل ابن بحر زيادة «لا» على الشّذوذ جهلٌ منه بقواعد العربيّة، وليس كل من يعرف شيئاً من الكلام يجوز له التكلّم على قواعد العربيّة .

وليس كون : «لا» زائدة في فحوى خطاب العرب مما يكون طعناً من الملحدة على كلام الله، لأن كلام الله منزّل على لسانهم، فما كان متعارفاً على لسانهم لايمكن الطعن به على كتاب الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيراً.

وكيف يكون زيادة: «لا» شاذة، وقد جاء ذلك عنهم وشاع كقول الهُذليّ.

أَفَعَنْكِ لايَرْقى كأن وَميضَهُ غابٌ تَسنّمهُ ضِرامٌ مُثْقَبُ(٢٤٢)
أى أفمن ناحيتك أيتها المرأة هذا البرق الذي يشبه ضوؤه ضوء غاب.

وانشد أبو عبيدة للأحوص :

وتَلحيَنَني في اللّهو ألاّ أُحِبَّهُ وللهو داعٍ دائب غيرُ غافلِ(٢٤٣)
أى : أفي اللهو أن أحبه و«لا» زائدة.

ومنه ماأنشده سيبو يه لجرير:

مابالُ جَهْلِكِ بعد الحِلْم والدين وقد عَلاك مَشيبٌ حِيَن لاحين(٢٤٤)

«لا» فيه زائدة، إذا قلت : علاك مشيب حين حينٍ فقد أثبت: «حيناً» علاه فيه المشيب، فلو جعلت: «لا» غير زائدة لوجب أن تكون نافية على حدّها في قولهم: جئت بلامال، وابُتُ بلاغنيمة، فنفيت ما أثبت من حيث كان النفى بـ«لا» عامًّا منتظما لجميع الجنس.

فلما لم يستقم حمله على الجنس لتدافع العارض في ذلك حكمت بزيادتهما فصار التقدير: حين حينٍ، وهو من باب : حلقةُ فضّةٍ، وخاتم حديدٍ، لأن الحين يقع على الزمان القليل كالساعة ونحوها وعلى الطويل كقوله تعالى : «هل أتى على الانسان حينٌ من الدّهر»(٢٤٥) وعلى ماهو أقصر من ذلك كقوله تعالى: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ»(٢٤٦) فصار : حينَ حينٍ كقوله:

* ولولا يوم يوم ما أردناه (٢٤٧)

ومنه قول الشماخ :

أعائشُ ماالأهلِك لاأراهم يُضيعون الهِجَان مع المُضيع(٢٤٨)
وروى التَّوَّزيّ عن أبى عبيدة أن : «لا» زائدة.

ومنه قول المرار بيت الكتاب :

ولاينطِق الفحشاء من كان مِنْهم إذا جَلَسوا منّا ولامِنْ سَوائنا»(٢٤٩)

ثم قال في ختام نقده لابن بحر: «وزيادة الحروف في التنزيل كثير»(٢٥٠).

وبعد هذه الجولة الفكرية في قضية خطيرة، وهي قضية الزيادة في القرآن الكريم وضح لنا أن زيادة الحروف ليست ضرباً من اللغو، ولكنها أسلوب جرى على نهجه العرب، ونسج على منواله فصحاؤهم وبلغاؤهم.

هذا بالنسبة للحروف أما بالنسبة للأسماء، فانني لاأعترف مطلقاً بهذه الزيادة، لأن الأسماء، ماوضعت الاّ لتدل على المعاني، وبالأسماء تتم أجزاء الجملة، وأذا ما زيد اسم لامعنى له أدى ذلك إلى تمزيق أوصال الجملة، وتحويلها إلى جملة لا تؤدي إلى معنى.

ومن هذه الأسماء «إذْ» وهي في معظم أحوالها ظرف جاء لغرض، واسم جاء لمعنى فالقول بزيادتها رأى مجحف. وقد عرضنا الآراء النقدية التي صَوبت سهامها نحو من قال بزيادتها. ونكتفي بهذا القدر من البحث في إذْ الزائدة، ولعلنا قد أشبعنا القول فيها

وقبل أن ننتهي من بحث إذْ الزائدة نحب أن نشير الى مسألتين تتعلقان بـ «إذْ» من حيث الاعراب والمعنى، وهما:

أ ــ جرّ إذْ بالإضافة بعد : «بَعْد».
ب ــ دخولها على أداة شرط جازمة .
وسنتناول هاتين النقطتين في ضوء المعنى والتركيب .

أماّ جرّ إذ بالإضافة بعد بَعد فإن النحويين يقولون: إن إذ في أغلب أحوالها لاتخرج عن الظرفية، فهي من الظروف غير المتصرفة أي اللازمة للظرفية. والظروف غير المتصرفة منها «مالايخرج عن الظرفية أصلاً مثل قطُّ، وعوضُ، تقول: مافعلته قطُّ، ولاأفعله عوضُ» ومنها: «مايخرج عنها إلى شبهها وهو الجرّ نحو: قَبلْ، وبَعْد، ولدن وعند، فيقضي عليهن بعدم التصّرف» مع أن حين تدخل عليهن إذْ لم يخرجن عن الظرفية إلاّ إلى مايشبهها، لأن الظرف والجار والمجرور سَيان في التعَلّق بالاستقرار، والوقوع خبراً، وصِلة، وحالاً، وصفة»(٢٥١).

وإذ من الظروف الملازمة للظرفية، ولكنها تخرج عن الظرفية إلى شبهها حينما تجرّ بـ «بعد» .

قال الرّضي: «وتلزمها الظرفيّة إلاّ أن يضاف إليها زمان كقوله تعالى: «بعد إذْ نَجّانا اللّهُ مِنْها»(٢٥٢)، وقوله تعالى: بعد إذ أنتم مسلمون»(٢٥٣)، ثم قال: «ولم يعهد مجروراً باسم إلاّ بـ«بعد»(٢٥٤) ومعنى ذلك أن إذْ الظرفيّة ملازمة دائماً للظرف، ولكنها تخرج عن الظرفية إذا جرّت: بـ «بعد»، ولها في ذلك نظير. فـ «قبل» و «بعد» و «لدن» و «عند» ظروف تخرج عن الظرفية إلى شبهها وهو الجرّ بحرف: «مِنْ» مثل: «لله الأمر من قبل ومن بعد»(٢٥٥) وأمّا دخول إذْ على الشرط، فالنحويون، وعلى رأسهم سيبويه يرون أنه إذا دخلت: «إذْ» على أداة شرط جازمة امتنع جزم الأداة لأن الجزاء في غير موضعه، أو بعبارة أخرى: إن «إذْ» إذا دخلت على أداة الشرط الجازمة ألغت وظيفة الشرط.

يقول سيبويه: «فمن ذلك قولك: أتذكر إذْ من يأتينا نأتيه.. وإنما كرهوا الجزاء ها هنا، لأنه ليس من مواضعه، ألا ترى أنه لايحسن أن تقول: أتذكر إذْ إنْ تأتنا نأتك، كما لم يجز أن تقول: إنّ إنْ تأتنا نأتك. فلما ضارع هذا البابُ باب إنَّ و«كان» كرهوا الجزاء فيه»(٢٥٦).

وفي ضوء نص سيبويه يتضح لنا أن إذْ ألغت عمل أدوات الشرط الجازمة حينما دخلت عليها. والسبب في ذلك يشير إليه سيبويه حينما يقول: إنه لايحسن أن تقول: أتذكر إذْ إنْ تأتنانأتك» لأن إن الشرطية الجازمة تدل على المستقبل على حين إذ الظرفية تدلّ على الماضي، والتقاء الماضي والمستقبل مستحيل عقلاً ووجوداً.

من أجل ذلك حينما تدخل إذْ تتجرّد إنْ الشرطية من معنى الجزاء وإذا جردّت من معنى الجزاء جردت من التأثير في الأفعال التي بعدها، فتبقى كما هي، والسبب في ذلك إذْ.

وهذا التفسير الذي هديت اليه لنص سيبويه. يؤيده قول سيبويه في نفس الموضع: «وتقول: أتذكر إذْ نحن من يأتنانأته، فنحن فصلت بين «إذْ» و

«من»(٢٥٧)، والفصل بـ «نحن» وقف حائلاً بين الزمنين الماضي المتمثل في إذْ، والمستقبل» المتمثل في «مَنْ» الشرطية. ومن أجل ذلك صحّ الجزم بـ «من» لوجود الفاصل: «نحن»

وأماّ إذا دخلت إذْ على أداة شرط جازمة في الشعر، فأنه يجوز الجزْم على الضّرورة.

يقول سيبو يه :

«وقد يجوز في الشعر أن يجازى بعد هذه الحروف، فتقول: أتذكر إذْ من يأتنانأته، فإنما أجازوه لأن إذْ وهذه الحروف لا تغير مادخلت عليه عن حاله قبل أن تجيء بها، فقالوا : ندخلها على: من يأتنا نأته، ولاتغيرّ الكلام كأنا قلنا، من يأتنانأته، كما أنا إذا قلنا: إذْ عبدالله منطلق، فكأنا قلنا : عبدالله منطلق، لأن إذْ لم تحدث شيئاً لم يكن قبل أن نذكرها»(٢٥٨).

و بهذا النصّ، وضع سيبو يه النقاط على الحروف في تفسير جواز الجزم بأداة الشرط مع دخول إذْ عليها في باب الشعر.

وسبب الجواز أن إذْ دخلت بعدما حدث التركيب الشّرطيّ بالأداة فكأن إذْ لم تحدث فيه شيئاً.

ولاشك أن سيبو يه أحسّ بالحرج في هذا الجواز، فأراد أن يفسّر جواز هذا الأسلوب في الشّعر فقط من باب الضرورة، أماّ في النثر فإن هذا الأسلوب مرفوض كما قلنا لاختلاط الماضى بالمستقبل مما يسبب اضطراباً في معنى الجملة، ولذلك فإن الشرط مع إذْ كلا شرط.

و يعلق ابن جنى على قول القائل :

* أتذكر إذ من يأتنانأته *

فيقول : «فلا يجوز إلاّ في ضرورة شعر»(٢٥٩)

ثالثا : بين إذْ الظرفية وإنْ الشرطية

قد يثير هذا العنوان تساؤلات عديدة :

من هذه التساؤلات : ما العلاقة بين إذْ الظرفية، وإنْ الشرطية؟ وذلك لأن إنْ الشرطية حرف، وإذ الظرفية اسم: فالرابطة بينهما من حيث الظرفية والحرفية مفقودة.

وتساؤل آخر هو: أتوجد علاقة بين إذ التي تدل على الماضى، وإنْ التى تدل على المستقبل؟

وتساؤل ثالث: إذا كانت إذْ مجرّده من «ما» لاتجزم، ولاعلاقة بينها و بين إنْ الجازمة، فالعلاقة من حيث العمل والتأثير بينهما معدومة فلمَ إذاً أوجد النحو يون هذه العلاقة بين أداتين بينهما انفصال في العمل، وانفصال في الدلالة، وانفصال في الزمن؟

هذه التساؤلات السابقة لايعترف البصريون بوجودة علاقة بين إنْ الشرطية، وإذْ الظرفية.

أمّا الكوفيون فقد أوجدوا بينهما علاقة، فقد قالوا: إنّ «إنْ» الشرطية تقع بمعنى إذْ .

وهذا القول الكوفي فتح باب قضيّة احتدم فيها الجدال بين البصريين والكوفيين، وهانحن نبسط القول فيها:

هل تقع إنْ الشرطية بمعنى إذْ ؟

للإجابة عن هذا السؤال نتناول أولاً رأى البصريين والكوفيين، ثم نتناول ثانياً رأى المفسرين:

اولا: إذْ بين البصريين والكوفيين:

قال ابن الأنبارى: ذهب الكوفّيون : إلى أنّ (إنْ) الشرطية تقع بمعنى إذْ»

أدلّة الكوفيين :

تلخّص أدلة الكوفيين التي ساقها ابن الأنباري بأسلوبنا فيما يأتي :

أ ـــ أدلة قرآنية .

١ ـــ كثير من آيات القرآن الكريم لا تُفسّر فيها إنْ إلا على أنها بمعنى إذْ ، أو بعبارة أخرى، إنْ الشرطية في الآيات لا تفسّر إلا بمعنى: إذْ ، وإلاّ اختل المعنى.

ـــ من هذه الآيات : قوله تعالى : «وإنْ كُنْتُم في رَيْب ممّا نَزّلْنا على عبدنا»(٢٦٠) أي، وإذْ كنتم في رَيْب، لأن إنْ الشرطية تفيد الشّكّ ولو بقيت إنْ تحمل معنى الشّكّ لما كان هناك فائدة في التعبير بها لأنهم كانوا في شَكٍّ بدليل قوله تعالى: «وإنْ كنتم في ريب» والرّيْبُ هو الشّك، وإنْ تفيد الشّك، وعلى حد تعبير ابن الأنباري : لاشك أنهم كانوا في شك.

و يوضح الكوفيّون رأيهم بأنه لا يجوز أن يقال: «إن قامت القيامة كان كذا» لأن هذا يقتضي الشّكّ في قيامة القيامة، وقيامها محقق لايحتمل الشك أو الريب.

لذلك كان لابدّ من أجل صحة المعنى أن تفسّر إنْ بمعنى إذْ لأنك إذا قلت: إذْ قامت القيامة كان كذا، كان الأسلوب جائزاً لأن إذ لا تحمل معنى الشك.

ومن هذه الآيات : قوله تعالى : «يأيّها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا مابَقِيى من الرّبا إنْ كنتم مؤمنين أي إذْ كنتم»(٢٦١)، لأنه لاشَكّ في كونهم مؤمنين، والدلّيل على ذلك مخاطبتهم في صدر الآية بالإيمان فقال: «يأيها الذين آمنوا، فكيف يناديهم بالإيمان ثم تظل إنْ تحمل معنى الشك في إيمانهم؟ إنه التناقض، ولذلك قالوا : إن «إنْ» بمعنى: إذْ .

ومن هذه الآيات قوله تعالى: «واتّقُوا الله إنْ كنتم مؤمنين»(٢٦٢) فإذا كانت إنْ بمعناها، فكيف يتقون الله، وإيمانهم مشكوك فيه؟

ومن هذه الآيات قوله تعالى: «وأنتُم الأعْلَوْن إنْ كنتم مؤمنين»(٢٦٣) فكيف يكونون في علوّ على أعدائهم، وفي إيمان الشك والريب؟

ومن هذه الآيات قوله تعالى : «لتدخُلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين»(٢٦٤)، فكيف يؤكد دخولهم المسجد الحرام ثم يشك في هذا الدخول بالتعبير إن شاء الله.

فـ «إن» في هذه الآيات لاتحمل معنى الشّك، وليس فيها معنى الجزاء وإنما هي بمعنى إذْ الظرفية، وإذ الظرفية ليس فيها معنى الشك .

ب ــ دليل من الحديث الشريف :

جاء في الحديث عن الرسول عليه السّلام حين دخل المقابر قال: «سلامٌ عليكم أهلَ دار قومٍ مؤمنين، وإنّا إنْ شاء الله بكم لاحقون» فـ »إن» في هذا الحديث بمعنى: إذْ لأنه لايجوز الشك في اللّحوق بهم».

ج ــ دليل من الشواهد الشعرية :

قال الشاعر:

وسمِعْت حَلفَتَها التي حَلفَتْ   إن كان سَمْعُك غيرَ ذي وَقْرِ

ووجه الاستشهاد بهذا البيت، وضحه المرحوم الشيخ محمد محي الدين بالنص الآتي: «ومحل الاستشهاد في هذا البيت هنا قوله: »

* إن كان سمعك غير ذي وقر *

فإن الكوفيين زعموا أنّ (إنْ) هاهنا بمعنى إذْ ، والكلام تعليل لقوله: «سمعت حلفتها»، فإن المراد عندهم: سمعت حلفتها لأن سمعك سليم غير ذي وقْر.

والذي دعاهم إلى هذا أن الأصل في الشرط أن يكون مستقبلاً، لأن القصد تعليق الجواب عليه، وتعليق الشيء لايكون على شيء مضى، لأنه حينئذ لافائدة في تعليق وجود الجواب عليه، وإنما يكون التعليق فيما يأتي من الزّمان، فلما وجدوا (إنْ) تدخل على الفعل الماضي قالوا: إنه لايراد بها التعليق حينئذ، وإنما يراد بها التعليل»(٢٦٥).

أدلة البصريين :

لم يقدّم البصريّون في منعهم وقوع إنْ الشرطية بمعنى: إذْ غير دليل واحد، وهو الوضع الأصلي لـ «إن » أن تكون شرطاً. قال ابن الأنباريّ موّضحاً رأيهم بما نصه:

«وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: أجمعنا على أن الأصل في «إنْ» أنْ تكون شرطاً، والأصل في إذْ أن تكون ظرفاً، والأصل في كل حرف أن يكون دالاً على ما وضع له في الأصل، فمن تمسّك بالأصل فقد تمسّك باستصحاب الحال، ومن عدل عن الأصل بقى مرتهناً بإقامة الدليل»(٢٦٦).

نقد البصريين لأدلة الكوفيين:

وصوّب البصريون أدلة نقدهم نحو أدلة الكوفيين. ونترك ابن الأنبارى بأسلوبه الواضح الذي لاغموض فيه يعرض لنا أدلة نقدهم:

قال : أما احتجاجهم بقوله تعالى: «وإنْ كُنتم في رَيْب ممّا نزلنا على عبدنا» فلاحجة لهم فيه، لأن «إن» فيه شرطيّة.

وقولهم: إنّ «إنْ» الشرطية تفيد معنى الشك، قلنا: وقد تستعملها العرب، وإن لم يكن هناك شك، جرياً على عاداتهم في إخراج كلامهم مخرج الشك، وإن لم يكن هناك شك.. ومنه قولهم: «إن كنت إنساناً فأنت تفعل كذا، وإن كنت ابني فأطعني» وإن كان لايشك في إنه إنسان، وأنه ابنه، ومعناه: أن مَنْ كان إنساناً أوابناً فهذا حكمه، فخاطبهم الله تعالى على عادة خطابهم فيما بينهم» وهذا هو الجواب عن جميع ما استشهدوا به من الآيات».

ووقف البصريون حائرين أمام آية واحدة من الآيات التي استدلّ بها الكوفيون، وهي آية: «لَتَدْخُلُن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين» فإن إخراج الكلام هنا مخرج الشّك. وإن لم يكن هناك شك لايتلاءم مع المعنى المراد في الآية الكريمة. ومع ذلك فقد حاولوا أن يخرجوا من هذه الحيرة التي وقعوا فيها فأجابوا عن هذه الآية من وجهين: بينهما ابن الأنبارى فقال:

أحدهما : أن يكون الاستثناء وقع على دخولهم آمنين، والتقدير فيه: لتدخلُن المسجد الحرام آمنين إن شاء الله».

وليقف القارىء على سر هذه الاجابة لابُدّ من توضيحها ليقف على جليّة أمرها.

إجابة البصريين تعني : أنّ دخول المسجد الحرام مؤكد لاشك فيه وتأكيده باللاّم والنّون محقق لابد من وقوعه، أما مشيئة الله فإنها لا تتعلق بالدخول، ولكنها تتعلق بالأمن وقت الدخول. .إنهم يدخلون، ولكن الأمن حالة الدخول متعلق بمشيئة الله.

قال ابن الأنبارى :

والوجه الثاني : أن يكون ذلك على طريق التأديب للعباد ليتأدبوا بذلك كما قال تعالى: «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلاّ أن يشاء الله»(٢٦٧).

والوجه الثاني هو بعينه إجابة عن إشكال الحديث الشريف: «لأنه لما أدبه الحقّ بقوله تعالى: «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله تمسّك بالأدب، وأحال على المشيئة فقال: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وأجاب البصريون عن الشاهد الشعرى بقولهم: إنّ «إنْ فيه حرف شرط لابمعنى إذْ، واستغنى بما تقدم من قوله: «وسمعت» عن جواب الشرط لدلالته عليه على مابيّنا»(٢٦٨).

رأى الامام الرضّى :

لم تمرّ قضية الخلاف بين البصريين والكوفيين من غيرتعليق من النحاة المتأخرين فقد كان للإمام الرضى رّأى في هذه المشكلة، كما كان لابن هشام رأى آخر:

ولنتناول الآن رأى الامام الرّضى فماذا يقول؟: «وعند الكوفيين يجيء إنْ بمعنى إذْ، قالوا في قوله تعالى: «وإن كنتم في ريب» إنها بمعنى: إذ، لأن إنْ مفيدة للشك ـــ تعالى الله عنه.

والجواب : أن «إنْ» ليست للشك، بل لعدم القطع في الأشياء الجائز وقوعها وعدم وقوعها، لا للشّك. ولو سلمنا ذلك أيضاً، قلنا: إنه تعالى يستعمل الكلمات استعمال المخلوقين، وإن كان يستحيل مدلولها في حقه تعالى لضرْب من التأويل كقوله تعالى: «ليبلوكم»(٢٦٩) لما كان التكليف من حيث التخيير في صورة الابتلاء.

وقال : «لعلكم تتقون»(٢٧٠) لما كانوا في صورة من يرتجى منهم ذلك.
وقال: «يُضلّ من يشاء» أي يترك الإلطاف لمن يعْلم أنه لاينفعه ذلك، فكذا قال تعالى: «إن كنتم مؤمنين»(٢٧١)، «وإن كنتم في ريبٌ»(٢٧٢).

رأى ابن هشام :

أما رأى ابن هشام فإنه ترداد لرأي الجمهور، وذلك حيث يقول: «أجاب الجمهور عن قوله تعالى : «إن كنتم مؤمنين» بأنه شرط جيىء به للتهييج والإلهاب، كما تقول لابنك: إن كنت ابني فلا تفعل كذا وعن آية المشيئة، وهى قوله تعالى : لَتَدْخُلُنّ المسجد الحرام ــ إن شاء الله ــ بأنه تعليم للعباد كيف يتكلّمون إذ أخبروا عن المستقبل، أو بأن أصل ذلك الشرّط، ثم صار يذكر للتبُّرك، أو أن المعنى لتدخلن جيماً ــ إن شاء الله ــ ألا يموت منكم أحد قبل الدخول. أو أن ذلك من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين أخبرهم بالمنام، فحكى لنا ذلك، أو من كلام الملك الذي أخبره في المنام»(٢٧٣).

رأى ومناقشة :

إذا سلطنا الضّوء على رأى الامام الرّضّي نجد أنه بالغ في التقدير وأغرق في التأويل . وأماّ رأى ابن هشام فإنه ردّد فيه رأى الجمهور، ولا يحمل بين طيآته جديداً.

ورأى الرّضى لنا وقفة معه، و بخاصة عندما يقول: إنّ «إنْ ليست للشك

بل لعدم القطع في الأشياء الجائز وقوعها، وعدم وقوعها» في رأيي أن عدم القطع في الأشياء هو الشّك بعينه مهما اختلفت العبارة واختلفت الألفاظ ـ فلم يأت بجديد حينما قال هذا القول الذى لايختلف عن معنى الشّك، وإن اختلفت الألفاظ.

وإذا رجعنا إلى تعريفات الشّك وجدنا السّند والدليل لما نقول. لننظر ماذا يقول ابن السّيد عن الشك في كتابه «التعريفات»؟ يقول : «الشّك هو التردّد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاكّ.

وقيل : الشك : مااستوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لايميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجحّ أحدهما، ولم يطرح الآخر فهو ظنّ، فإذا طرحه فهو غالب الظن، وهو بمنزلة اليقين»(٢٧٤).

ففي تعريفَي الشّكّ عند ابن السّيد نلحظ أنه لافرق في معنى الشك بين ماقاله الرّضيّ وماقاله ابن السيد في تعريف الشك، وإن اختلف الأسلوب، واختلفت الألفاظ .

في رأيي أن الرّضي جانبه التوفيق حينما ركب هذا المركب الصعب في التأويل والتقدير .

رأى المفسرين :

هذه القضية التي أثارت الجدل بين البصريين والكوفيين ومن تبعهم من النحويين المتأخرّين تعرض لها المفسّرون، وكان لهم فيها رأى، وسأحاول في إيجاز عرض هذه الآراء لنقف على حقيقة القضية في ضوء التفسير القرآني.

رأى الطبرى :

في قوله تعالى : «أَفَنَضْرِب عنكم الذِّكْر صَفْحاً أن كنتم قوماً مسرفين»(٢٧٥) ذكر الطبريّ أنّ القرّاء اختلفت في قراءة ذلك «فقرأته عامّة قرّاة

المدينة والكوفة: «إن كنتم» بكسر الألف [أي الهمزة] من «إنْ» بمعنى: أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إذْ كنتم قوماً مسرفين.
وقرأه بعض قرآء أهل مكة والكوفة، وعامة قراء البصرة (أن) بفتح الألف من «أنْ» بمعنى : لأن كنتم».

ثم قال الطبرى معللاً لهاتين القراءتين، قراءة كسر همزة إنْ، وقراءة فتح همزتها: «واختلفت أهل العربيّة في وجه فتح الألف من «أن» في هذا الموضع، فقال بعض نحويى البصرة: فتحت، لأن معنى الكلام، لأن كنتم.

وقال بعض نحويي الكوفة: مَن فتحها، فكأنه أراد شيئاً ماضيا، فقال وأنت تقول في الكلام: أتيتُ أنْ حرمتنى، تريد: إذْ حرمتنى، و يكسر إذا أردت: أتيت إن تحرمنى... قال والعرب تنشد:

أتجزع أن أذُنا قُتَيْبَة حُزّتا   جهاراً ولم تجزع لقتل ابن خازم
قال : و ينشد :

أتجزع أنْ بان الخليط المودّع   وحَبْل الصّفا من عزة المتقطّعُ(٢٧٧)
قال: وفي كل واحد من البيتين مافي صاحبه من الكسر والفتح.
والصواب من القول في ذلك عندنا أن الكسر والفتح في الألف في هذا الموضع قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار، صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب، وذلك أن العرب إذا تقدّم إن ــ هى بمعنى الجزاء ــ فِعْل مستقبل كسروا ألفها أحياناً، فمحضوا لها الجزاء فقالوا : أقوم إنْ قمت، وفتحوها أحياناً وهم ينوون ذلك المعنى فقالوا: أقوم أن قمت بتأو يل لأن قمت.
فإذا كان الذي تقدّمها من الفعل ماضياً لم يتكلموا إلاّ بفتح الألف من «أنْ»، فقالوا: قمت أنْ قمت، و بذلك جاء التنزيل وتتابع شعر الشعراء »(٢٧٧).
ذلك هو نص الطبرى في قضيتى إنّ، و«إذْ»، وقد وضح بما لايدع مجالاً

للشك أنّ كسر همزة «إنْ» التي قرأبها أهل المدينة وأهل الكوفة على تقدير أنّ «إنْ» بمعنى: «إذْ».

وقرأ بعض أهل مكة والكوفة بفتح همزة أنْ على تقدير: «لأن» بفتح الهمزة، وتقدير اللام الجارة قبل «أن» ومثّل الطبرىّ للقراءتين بمثال نحوىّ وهو: أتيت إن حرمتني. تفتح أن في هذا المثال إذا أريد المضي، وحينئذ يكون هناك حرف محذوف وهو اللام الدال على التعليل، وكأنّ «أن» مع اللام بمعنى: إذْ التعليلية، وهذا هو المفهوم من عبارة الطبري: «تريد: إذ حرمتني لأن التعليل في نظري ليس من «أن» فهي ليست حرف تعليل، وليس هناك أيضاً علاقة بين «أن» مفتوحة الهمزة و «إذْ» التعليلية. أما إذا أردنا الشرط والجزاء، فإن «أن» تكسر إذا أردنا معنى: أتيت إنْ تحرمني.

على أن الطبرى كان دقيقاً حينما بينّ أن الجزاء بـ «إن» ليس لازماً في كل حال، وهذا مستفاد من قوله: «إذا تقدّم إن ـــ هى بمعنى الجزاء ـــ فعل مستقبل كسروا ألفها أحياناً، فقالوا: أقوم إنْ قمت» ومعنى هذا أن عِلّة كسْر إنْ في الآية القرآنية»، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً» هى نفس عِلّة كسرة إن فى قولهم: أقوم إنْ قمت، فالآية تشمل فعلاً مستقبلاً: «نَضْرب» قبل (إنْ) التي يليها ماض وهو: «كنتم». وليس هذا الكسر لازماً، أو ضرورة لأبدّ منها في جميع الأساليب.

لذى نرى الطبرى «في المثال النحوىّ أقوم أن قمت، يقول بجواز فتح همزة (إنْ) أحياناً إذا أردنا التأويل على معنى : لأن قمت مع نيّة الجزاء.

ومن نصّ الطبرى أيضاً نجد أن رأى الكوفيين في كسرة همزة «إن» في الآية الكريمة ليس فيه تأويل ولا تقدير لأن «إنْ» فيه بمعنى: إذْ» و يؤيد الكوفيين في رأيهم أنّ (إنْ) بمعنى: إذْ قراءة «زيد بن علىّ» «إذْ كنتم» بذال مكان النون»(٢٧٨).

على أن البيت الأول الذي استشهد به الطبرى أثار جدلاً نحوياً بين النحويين بالنسبة لفتح همزة إن في البيت أو كسرها.

والبيت لشاعر معروف، وهو الفرزدق.

استشهد به الرّضي في الكافية «على أنه قد يستعمل الماضي في الشرط متحقّق الوقوع، وإن كان بغير لفظ كان، لكنه قليل» و يبين البغداديّ في الخزانة أن فعل الشرط «محذوف مفسّر بالفعل المذكور» والتقدير: إن حزّت أذنا قتيبة، فَحَزّ أذنيه قد وقع فيما مضى من الزّمان وتحقق معناه»(٢٧٩).

رأى سيبويه :

ولسيبويه في قضية فتح وكسر همزة إن في هذا البيت رأى نذكره بنصه، ثم نعلق عليه موضحين غموضه، إن كان هناك غموض .

يقول سيبويه :

و«سألت الخليل عن قول الفرزدق:

أتغضب إنْ أذنا قُتيبةَ حُزّتا جهاراً ولم تغضب لقتل ابن خازِمِ

فقال : لأنه قبيح أنْ تفصل بين «إن» والفعل، كما قبح أن تفصل بين كي والفعل، فلما قبح ذلك ولم يجز حمل على «إن» لأنه قد يقدّم فيها الأسماء قبل الأفعال»(٢٨٠).

من إجابة الخليل يتبيّن لنا أنّ «إنْ» في البيت لايصح فتح همزتها، لأنه يقبح أن يلي أن المفتوحة الهمزة اسم يفصل بينها و بين الفعل كما يقبح أن يفصل بين كي والفعل فاصل سواء كان الفاصل اسماً مثل أذاكر لكي النّحوَ أتعلم، حتى ولو كان الفاصل حرفاً فقد ضعفوا قول الشاعر. جميل بن معمر حينما قال :

فقالت أكُلَّ النّاس أصْبَحْت مانحاً لسانك كَيْما أنْ تغُرَّ وتخدعا(٢٨١)

ومن أجل هذا، أوبعبارة أخرى، من أجل إزالة هذا القبح تكسر همزة «إنْ» على أن تكون أداة شرط، وهذه يجوز دخولها على الأسماء بشرط أن يكون بعدها فعل مفسر للفعل المقدر أو المحذوف قبل الاسم الداخلة عليه، ومثاله قوله تعالى: «وإنْ أحَدٌ من المشركين استجارك»،(٢٨٢) والتقدير: وإن استجارك أحَدٌ من المشركين استجارك.

وعلى هـذا يُقدّر في البيت فعل محذوف يدلّ عليه الفعل المذكور، و يكون التقدير: أتغضب إن حزّت أذنا قتيبة حُزّتاً.

رأى المبرّد :

و يرى المبـرد: أن كسر همزة إنْ لايجوز في بيت الفرزدق. لأن «قتل قـتيبـة قـد مضى، وإنْ للجـزاء، والجزاء يكون لما يأتى، فلا يستقيم أن تقول: إن قُمْتَ قمتُ، وقد مضى قيامه.».

والـذي يـراه المبـرّد كـمـا نـقـلـه ابـن الـسّـيد عنه، وسجله البغدادى في الخـسزانة هو «فتح (أن) في هذا البيت، وجعلها «أن» المخففة من الثقيلة وأضمر اسمها، كأنه قال: أنه أذنا قتيبة حزّتا»(٢٨٣).

رأى ابن السّيد :

و يرى ابن السّيد رأى سيبو يه، وهو كسر همزة إنْ في البيت و يوجّه رأيه فـيـقـول: «إنـه وضـع السبب موضع المسبب، كأنه قال: أتغضب إن افتخر مفتخر بحزّ أذنى قتيبة كما قال الآخر

إنْ يـقْـتُـلـوك فـإنَّ قـتـلـك لـم يـكـن   عـاراً عـلـيـك وَرُبّ قـتـلٍ عـار(٢٨٤)

المعنى إن افتخروا بقتلك، فذكر القتل الذى هو سبب ذلك»(٢٨٥)

رأى ابن هشام :

و يـرى ابن هشام رأى سيبو يه أيضاً في كسر همزة «إن» ، و يوجه كسر الـهـمـزة بوجهين: أحدهما: ذكره ابن السيد كما بيناه سابقاً وثانيهما رأى انفرد به ابن هشام.

يـقـول ابـن هـشام موجهاً لكسرة همزة إنْ، ومبينا أن الكسر على وجهين: «أحـدهـمـا: أن يكون على إقامة المسبب مقام السبب، والأصل: أتغضب إن افتخر مفتخر بسبب حزّ أذُنَيْ قتيبة، إذ الافتخار بذلك يكون سبباً للغضب، ومُسَبّباً عن الحز.

الـثـانى : أن يكون على معنى : التبيّن، أى أتغضب إنْ تبين في المستقبل أن أذنى قتيبة حزتا فيما مضى»

والذى يستدعى الدهشة أن ابن هشام نسب للخليل رأيا يختلف عن نقل سيبو يه عنه، فقد قال ابن هشام: «وقال الخليل والمبرد: الصواب أن «أذنا «بفتح الهمـزة من «إن» أى لأن أذنـا. ثـم هى عند الخليل أن الناصبة.. إلى أن يقول: و يردّ قول الخليل أنّ الناصبة لايليها الاسم على إضمار الفعل، وإنما ذلك لـ «إن» المكسورة»(٢٨٦).

ومـن غير شك أن هـذا تجنٍّ من ابن هشام لأنه نسب للخليل مالم يقل واتهمه برأى لم يصدر عنه، ولا أدرى من أين أتى برأى الخليل هذا؟

لـيـس هـنـاك كـتـاب يـضـم آراء الخليل غير كتاب سيبو يه، وكتاب سيبو يه نصّ كما ذكرنا على رأى الخليل الذي يقبح فتح أنْ في البيت.
وقد أشار إلى هذا النقد أيضاً البغدادى في الخـزانة(٢٨٧).

رأى الكوفيين :

و يرى الـكـوفـيـون أن «إن» في الـبـيـت ليست للشرط لمضيه، وإنما هى بمعنى إذْ»(٢٨٨).

(ب) رأى الفخر الرازى :

يـرى الفخر الرازى في تفسيره الكبير أن قراءة «نافع، وحمزة، والكسائى: إنْ كنتم بكسر الألف، تقديره: إن كنتم مسرفين لانضرب عنكم الذكر صفحاً.
وقـيـل : «إنْ» بـمـعـنـى: إذْ كـقـولـه تـعـالى : «وذَروا مـابـقى من الربَّا إنْ كنتم مؤمنين»(٢٨٩).

و بالجملة فالجزاء مقدم على الشرط .

وقـرأ الـبـاقـون بـفـتـح الألـف على الـتـعـلـيـل، «أى لأن كـنـتـم مسرفين»(٢٩٠).

ج ـ رأى القرطبى :

قال : «قيل الذكر: التذكُّر، فكأنه قال: أنترك تذكيركم لأن كنتم قوماً مسرفين في قراءة من فتح.

ومن كسر جعلها للشرط، وماقبلها جواباً لها، لأنها لم تعلم في اللفظ ونظيره:
«وذَروا ما بَــقِيَ من الّربا إن كنتم مؤمنين»
وقيل: الجواب محذوف دلّ عليه ماتقدّم كما تقول: أنت ظالم إن فعلت :

ومعنى الكسر عند الزّجّاج الحال، لأنّ في الكلام معنى التقرير والتوبيخ»(٢٩١).

د ـ رأى الطبرسى :

قال : «قرأ أهل المدينة والكوفة غير عاصم: «إنْ كنتم» بكسر الهمزة، والباقون بفتحها.

قال أبو عليّ: «من قال: «إن كنتم» فالمعنى: «لأن كنتم.. فالمعنى: أفنضرب عنكم ذكر الانتقام منكم، والعقوبة لكم لأن كنتم قوماً مُسْرِفين.

وهذا يقرب من قوله: «أيحسب الانسان أنْ يُتْرَك سُدى»(٢٩٢).
والكسر على أنه جزاء استغنى عن جوابه بما تقدمه مثل: أنت ظالم إن فعلت كذا، كأنه قال: إن كنتم مسرفين نضرب»(٢٩٣).

وبعد هذه الجولة في آراء المفسرين نستطيع أن نقول: كانت كلها تدور حول فلك واحد هو فلك الطبرى، فهو إمامهم، وكلهم شرب من معينه وارتوى من نبعه، فآراؤهم معظمها مستقاة من رأيه وقبسات من فكره.
وبقى لى بعده هذه المعركة الفكرية بين علماء اللغة والنحو والتفسير في هذه القضية رأى خاص، أتناوله فيما يلى:

رأى في هذه القضية :

الواقع أن سبب المعركة النحوية بين البصريين والكوفين قائم على أساس أن البصريين لهم منهج صارم في قضايا النحو، فـ «إنْ» الشرطية عندهم تحمل معنى الشكّ، لأن الجزاء مترتب على الشرط، فإذا ماتحقق الشرط تحقّق الجزاء، وتحقق الشرط أمر مشكوك فيه، فإذا قلنا: إن تذاكر تنجح، فإن المذاكرة بدخول إنْ عليها ليس تحققها واقعاً لكنه قد يقع، فبدخول إن احتمل الأمر حدوث الشرط، واحتمل عدم حدوثه.

ومن أجل هذا، إذا عرضت آيات قرآنية تحمل تركيب الشرط بـ «إن» ولاتحمل في الوقت ذاته معنى الشرط، لأن في تقدير معنى الشرط إخلالا بقضايا أخرى تمس العقيدة . وتمسّ المعنى الذي لايراد في مجال القرآن الكريم كما بينا سابقاً في الآيات التى عرضها الكوفيون، ولاتحمل معنى الشرط والجزاء .

ومع صرامة منهج البصريّين نجد أنهم ليحافظوا على أصولهم، و يصونوا منهج مذهبهم يلجئون إلى التأو يل والتقدير.

وفي رأيي أن منهج الكوفيين مجرّد من التعقيد، خال من التأو يل، سليم من التقديرات، فما المانع أن تكون إنْ بمعنى إذْ؟ وهذا أمر معترف به في أساليب اللغة العربية، فالحروف تحمل معنى الحروف، والأفعال أيضاً تحمل معنى الأفعال، وهذا باب واسع، فتحه على مصراعيه ابن جنّي في كتابه الخصائص. وهو باب التضمين.

على أن البصريين التزموا منهج الحرفيّة حينما قالوا: إن الأصل في إنْ تكون للشرط، ومن تمسّك بالأصل فقد تمسّك باستصحاب الحال» .

أيُّ أصل هذاالذي يستمسك به البصريّون؟ إن أساليب القول تختلف وتتباين بحسب اختلاف المواقف، وتباين الأحوال، فلكل موقف أسلوب، ولكل حالة تركيب

ولولّو ينا أعناق البصريّين نحو البلاغة، ومواقفها، وأحوالها، ومقاماتها

لعرفوا أنهم، ما كان يجب ان يستمسكوا بهذه القوانين الصارمة، فليست الأساليب العربيّة قوالب جامدة، تصب فيها الكلمات، وتوضع على غرارها الأساليب، لأن الأساليب العربيّة كما قلت مرتبطة بالموقف، مرتبطة بالهدف، مرتبطة بالمقام، ولكل مقام مقال.

لننظر ماذا يقول علماء البلاغة في إنْ الشرطية هذه التي حيرت اللغويين والنّحويين والمفسرين على حدّ سواء. ؟

تناول الخطيب القزويني في كتابه «الايضاح» قضية إنْ التى يقول البصريون عنها إنها للشرط، والشرط شك، فقال:

«وقد تستعمل «إنْ» في مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة كالتجاهل لاستدعاء المقام إيّاه، وكعدم جزم المخاطب كقولك:

لِمَنْ يُكذِّبُك فيما تخبر: إن صدقت فقل ماذا تفعل.

وكتنزيله منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، كما تقول: لمن يؤذى أباه: إن كان أباك فلا تؤذه.

وكالتوبيخ على الشرط، وتصوير أن المقام لاشتماله على مايقلعه عن أصله لايصح الاّ لِفَرضه كما يُفْرض المحال لغرض كقوله تعالى «أفَنَضْرِب عنكم الذّكْر صفحاً إنْ كنتم قوماً مسْرِفين» فيمن قرأ إن بالكسر لقصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب الإسراف، وتصوير أن الإسراف من العاقل في هذا المقام واجب الانتفاء، حقيقى ألا يكون ثبوته له إلا على مجرّد الفَرضْ.

وكتغليب غير المتصف بالشرط على المتصف به.

وقوله تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا» يحتمل أن يكون للتوبيخ على الريبة لاشتمال المقام على مايقلعها من أصلها.

ويحتمل أن يكون لتغليب غير المرتابين منهم، فإنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكر عناداً.

وكذلك قوله تعالى: «إن كنتم في ريب من البعث»(٢٩٤)

والتغليب باب واسع يجرى في فنون كثيرة كقوله تعالى: «ولنخرجنك ياشعيب والذين أمنوا معك من قريتنا أوْ لَتعودُنّ في مِلّتنا »(٢٩٥) أدخل شعيب عليه السّلام في: «لتعودنّ في ملتنا» بحكم التغليب إذ لم يكن شعيب في مِلّتهم أصْلاً.

ومثله قوله تعالى: «إنْ عُدنا في مِلّتكم»(٢٩٦)، وكقوله تعالى: «وكانت من القانتين»(٢٩٧).

عدّت الأنثى من الذكور بحكم التغليب..

وكقوله تعالى: «فسجدوا إلا إبليس»(٢٩٨) عدّ إبليس من الملائكة بحكم التغليب».

ويمضى الخطيب القزويني في علاج هذه القضية على هدى من الذوق البلاغى والجمال الفنى، والتركيب الأدبى، فيقول معلّلاً خروج إنْ من الشك الذي يفرضه عليها البصريّون لاعتبارات بلاغية كـ (إبراز) «غيرالحاصل في صورة الحاصل، إمّا لِقوة الأسباب المتآخية في وقوعه كقولك:

إن اشترينا كذا حال انعقاد الأسباب في ذلك»

وإمّا لأنّ ماهو لموقوع كالواقع كقولك: إن مت كان كذا وكذا كماسبق.

وإما للتفاؤل، وإما لإظهار الرّغبة في وقوعه، نحو: إن ظفرت بحسن العافية فهو المرام، فإن الطالب إذا تبالغت رغبته في حصول أمر يكثر تصّوره إيّاه، فربّما يخيل إليه حاصلاً وعليه قوله تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إنْ أرَدْن تحصّناً»(٢٩٩).

وقد يقوى هذا التخيل عند الطالب حتى إذا وجد حُكْم الحسّ بخلاف حكمه غلّطة تارة، واستخرج له مَحْملاً أخْرى، وعليه قوله أبي العلاء المعرّى.

ماسِرْت الاّ وطيْفٌ مِنك يَصْحَبُني   سرًى أمامِي وتأويباً على أثَرِي

يقول: لكثرة ماناجيت نفسى بك انتقشت في خيالى، فاعُدُّك بين يَدَىّ

مُغَلَّطاً للبصر بعلة الظّلام إذا لم يدركك ليلاً أمامي، وأعُدّك خَلْفي ـــإذا لم يتبسر لي تغليطُهُ حين لايُدْركك بين يَديّ نَهاراً»(٣٠٠).

أعتقد أنه بهذا التحليل الرائع استطاع الخطيب القزويني أن يضع النقاط على الحرُوف في هذه القضية. لننتقل بعد ذلك إلى القاء الضوء على إذْ حينما تدخل عليها «ما» فتصبح حرفاً له وظيفة نَعْرضها في النقطة التالية

رابعاً : إذْ الحرفية :

القسم الثالث من أقسام «إذْ » أن تكون حرفيّة وذلك بإضافة «ما» إليها لتتحوّل بهذه الإضافة إلى صيغة جديدة، إلى أداة شرط يجزم الفعل المضارع.

يقرّر ذلك سيبويه في كتابه، حيث يقول: «ولايكون الجزاء في حيث ولا في «إذْ» حتى يضم إلى كل واحد منهما «ما» فتصير إذْ مع «ما» بمنزلة : «إنما» و «كأنما»، وليست «ما» فيهما بلغو، ولكن كل واحد منهما مع «ما» بمنزلة حرف واحد»(٣٠١).

ويستشهد سيبويه لـ «إذما» الجازمة التي تغيرّت وظيفتها بدخول «ما » عليها، فصارت للشرط والجزاء بشاهدين :

أحدهما : لعباس بن مرداس حيث يقول :

إذْمــا اتَــيــتَ على الرّسول فَـقُـلْ له   حـقـاً عليك إذَا اطْمأن المجْلِسُ(٣٠٢)

وثانيهما: لعبدالله بن همّام السلوسي حيث يقول :

إذْمـا تَرَيْـنـي الـيـوم مُزجّى ظعينتي   أصَعّدُ سيراً في البلاد وأُفرِعُ(٣٠٣)

فـانّـيَ مِـنْ قـومٍ سِـواكُمُ وإنّـمـا   رِجـالـيَ فَـهـمْ بـالحجاز وأَشْجَعُ

قال سيبويه معلّقاً: سمعناهما مِمن يرويهما عن العَرب، والمعنى: «وإماً»(٣٠٤)

كان سيبويه دقيقاً كل الدقة في تعبيره حينما ذكر أن «إذ» مع «ما» تصير بمنزله: «إنمّا»، و«كأنما». وهومن دون شك يعني تغيير الوظيفة اللغوية لـ «إذ» بعد دخول «ما» عليهاو وهو أمر ليس ليس ببدع في طبيعة الوظائف اللغوية

للأدوات الأسلوبيّة، فـ «إنّ» مثلاً تنصب المبتدأ وترفع الخبر، و يستحيل في هذه الحالة دخولها على الجملة الفعلية، وكذلك: كأنّ، فإذا مالحقتهما «ما» تغيرت الوظيفة، وكفّا: إنّ، وكأنّ عن العمل، وصارت لهما وظيفة جديدة، وهي الدخول على الجمل الفعليّة كقوله تعالى : «فَمنِ اهْتدى فانَّما يَهْتِدى لِنَفْسه»(٣٠٥)، وكقوله تعالى : «كأنّما يُساقُون الى الموت وهم ينظُـرون»(٣٠٦)

رأى سيبو يه في الجزم بـ «إذما» بين السّيرافي والرّضي :

يخالف السّيرافيّ سيبو يه في أنّ إذْ ما «جازمة، فـ «إذما» عند السّيرافّي ليست من أدوات الشرط، وليس لها قوّة الشرط والجزاء كالأدوات الأخرى.

و ينصّ على هذه المخالفة صراحة فيقول: «ماعلمت أحداً من النحاة ذكر (إذما) غير سيبو يه، وأصحابه»(٣٠٧).

و يكشف الرّضي الغطاء عن رأى سيبو يه محلّلاً له، ومبيناً مقاصده حيث وضح أنّ الجزم لـ «إذما» في رأى سيبو يه ليس بسبب دخول «ما»، لأن «ما» قد تدخل على «إذا»، وفيها معنى الشرط ومع ذلك لم تحوّلها إلى أداة جَزْم، فكيف بـ «إذْ» التي ليس فيها معنى الشرط، وهي للماضى على حين إذا للمستقبل، والمستقبل ملازم للشرط.؟

يقول الرّضى: «وأماّ إذْما فهو عند سيبو يه حرف كـ «إن» ولعله نظر إلى أنّ لفظة «ما» تدخل على إذا مع أنّ فيه معنى الشرط، وهي للمستقبل ــ وإنْ دخلت على الماضى كـ «إنْ»، ولا تصير جازمة معها، فكيف بـ «إذْ» الخالية من معنى الشرط الموضوعة للماضى، فـ «إذْما» عنده غير مركّبة»(٣٠٨) فالرّضى في هذا النّص يؤكد أنّ «إذْما» بعد دخول «ما» عليها صارت كلمة واحدة، وليست مركّبةً من كلمتين، ولهذا صارت كـ «إنْ» الشّرطية، فتأخذ حكمها، وتؤدي مؤدّاها.

وقد وضح الهَروىّ في «الازْهية» رأى سيبو يه أيضاً حينما قال: بصدد تعداد وجوه «ما»:

والوجه الحادى عشر تكون «ما» مُسَلّطة للعامل على الجزاء كقولك: إذْ

تَخْرُجْ أَخْرُجْ» وكيف ماتصنعْ أصْنعْ، وحينما تكنْ أكُنْ، سَلّطتْ «ما»: إذْ، وكيف ، وحيث على الجزاء، ولولا «ما» لم يجزأن يجازى بـ «إذ»، وكيف، وحيث... إلى أن يقول:

«وإذما، مع «ما» إذا جوزى بها حرف، وليست باسم، وهما جميعاً حرف واحدٌ للمجازاة، وليست «ما» زائدة فيها كزيادتها في سائر حروف الجزاء»(٣٠٩).

والعجب كل العجب أن نجد بعض النحّاة يطلقون الرأى من دون أن يكلفوا أنفسهم التدّبّر فيما يرون، والتفكر فيما يذهبون إليه. عجبت لبعض النحاة يعلق على بيت سيبويه الذي جزمت فيه «إذما» كأداة من أدوات الشرط مُدّعياً أنّ «إذماً» لاتجزم كما يدّعى سيبويه، فيقول كما نقل الرّضى: «وقال بعض النحاة: أصله: «إماّ» وهو لايجيء الاّ بنون التوكيد بعده، كقوله تعالى: «فإما ترين»(٣١٠)، فلمّا كان ينكسر البيت ـ أعنى بيت عبدالله بن همام السلوسي الذي سبق ذكره ـ بالنّون غيرّ صورة «إمّا» بقلب الميم الأولى ذالاً».(٣١١).

كأن التفسير اللغوى للظواهر اللغوية يأتى هكذا اعتباطاً من غير تفكير وروية فليست هنا علاقة قلبية بين الذال والميم، وليست هناك ظواهر لغوية تقلب فيها الميم ذالاً

من الممكن أن تقلب الثاء ذالاً، فتقول: جثا على ركبتيه، وجذا، ويجثوا جثوا، ويجذو جذوا»(٣١٢).

ذلك لأن الثاء والذال حرفان لثويان، فالقرابة بينهما واضحة. ومن الممكن أن تقلب الميم لاماً أو نوناً فتقول: «انجبرت يده على عثم وعثل»(٣١٣)، وذلك لأن الميم شفهية، واللام ذلقية فتباعدتا في المخْرَج، وتقاربتا بالجهر.

وكذلك تقول : «تكهَّم، وتكهّن، أى تهزأ به»(٣١٤).

على أن الردّ القوى على بعض هؤلاء النحاة متمثل في قول الرّضي: «ولايتم له هذا في قوله: إذ ما دخلت»(٣١٥).

و يقصد الرّضي بردّه أن هذا التقدير بقلب الميم ذالاً في البيت السابق «إذْ ما دخلت على الرّسول» الخ لايتّم له، ولايمكن أن ينطبق عليه، وذلك لأنّ إمّا كما يقول هؤلاء البعض لا تأتى إلاّ بنون التوكيد معها، «وإذما» في البيت متلّوة بالفعل الماضي: «دخلت»، ولايدخل نون التوكيد في الماضي.

على أن القول الذي يستحق أن نقف عنده وقفة قصيرة هو قول السيرافي السابق: «ماعلمت أحداً من النحو يين ذكر «إذما» غيرسيبو يه وأصحابه» وهو قول مبالغ فيه، لأن معظم النحو يين الذين سبقوه ذكروا لـ «إذما» هذا الحكم الذي قرّره سيبو يه .

وها هو ذا المبرد يعترف بهذا الحكم، و يسلّم بهذه القضية مع أن المبرد كان مولعاً بالردّ على سيبو يه في مسائل معروفة لايتسع البحث للتعرّض لها.

يقول المبرّد معلّلاً لجزم «إذما» بعد دخول «ما» عليها: «ولايكون الجزاء في إذْ، ولافي حيث بغير «ما» لأنهما ظرفان يضافان إلى الأفعال، وإذا زيدت على كلّ واحد منهما «ما» مُنعتا الإضافة فعملتا»(٣١٦).

إنّ الخلاف بين سيبو يه والمبردّ في قضية الجزم بـ «إذما» ليس هو الجزم، وإنما في معنى إذ ما بعد دخول «ما» عليها، هل هي حرف أو اسم؟.

سيبو يه يرى أنها حرف كـ «إن» كما قلنا، والمبرّد يرى أنها اسم باق على اسميّته حتى بعد دخول «ما» عليه.

قال المبرّد: «إذما باقية على اسميتها، و«ما» كافة لها عن طلب الإضافة، مهيّئة للشرط والجزم كما في حيث، فإنها صارت بـ «ما» بمعنى المستقبل، وجازمة»(٣١٧).

ولعل المبرّد ينظر إلى أن «الأصل بقاء الكلمة على الاسّمية التي كانت عليها، وعدم تغيّرها إلى الحرفية بدخول كلمة أخرى»(٣١٨).

وأما قياس «إذما» على «إذاما» حيث يدعى بعض النحو يين أن «إذا» كانت «إذا» وهى شرطية، ودالة على المستقبل، و بابها في باب الشرط والجزاء أقوى، ومع ذلك بدخول «ما» عليها لاتجزم» فمن باب أولى الآ تجزم «إذ» مع «ما» لدلالتها على الماضى أوّلا، ولبعدها عن الشرط ثانياً:

وهذا الادعاء فنده الرّضى بقوله : «وأمّا الاعتراض بإذاما فلايلزم إذْ ربما اختص بعض الكمات ببعض الأحكام اختياراً منهم بلا مرجحّ، ألا ترى أن حيث مثل «إذا» متضّمن لمعنى الشرط ، بل إذا أقعد فيه، ويجزم حيث مع «ما» دون إذا»(٣١٩).

ومن النحو يين الذين دافعوا عن سيبو يه، واعتمدوا رأيه، واستدلوا له ابن يعيش، فقد قال :

«فإن قيل: «إذْ ظرف زمان ماض، والشرط لايكون إلاّ بالمستقبل فكيف تصحّ المجازاة بها؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما : أن إذْ هذه التى تستعمل في الجزاء مع «ما» ليست الظرفية، وانما هى حرف غَيْرها، ضَمّت اليها «ما» فركّبا للدلالة على هذا المعنى كـ «إمّا».

والثانى : أنهما الظّرفية إلاّ أنها بالترّكيب غيرت ونقلت وغيرّت عن معناها بلزوم «ما» إياها إلى المستقبل، وخرجت بذلك إلى حَيّز الحروف.

ولذلك قال سيبو يه : ولايكون الجزاء في حيث، ولا في إذ حتى يضمّ الى كل واحد منهما «ما» فتصير إذْ مع «ما» بمنزلة إنما وكأنما، وليست «ما» فيهما بلغو، ولكن كل واحد منهما مع «ما» بمنزلة حرف واحد»(٣٢٠).

و بعد، فلعلى بعد هذه الجولة الفكرية في قضية «إذْ » أكون قد وضعت فيها النقاط على الحروف، بعد أن تناثرت أجزاؤها ، وتطايرت عناصرها في كتب نحوّ ية مختلفة، ومراجع تفسيرية متعددة، فكان همى أن أجمع الشتات، والمّ الشمل، وأرجع الجزء إلى الجزء، وأضُمّ الرّكن إلى الركن حتى تتكامل الصورة، وتتضح المعالم من خلال المناقشة، وفي ضوء الادلة، وعلى طريق الصبر الطو يل الجميل، ولعلّى قد فعلت، والله المستعان .

هوامش البحث :

(١) مقدمة الأزهية في علم الحروف.
(٢) البرْح كما في القاموس هو: الأمر البيّن.
(٣) مقدمة رصف المباني / ٢ .
(٤) مقدمة : الجنى الداني / ١٩ .
(٥) مقدمة المغني / ١ .
(٦) آل عمران / ٨ .
(٧) الهمع ٣ / ١٧٢ .
(٨) الجنى الداني / ١٨٦.
(٩) الهمع ٣/١٧٢، والجنى الداني / ١٨٦ .
(١٠) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٤/٩٥،٩٦.
(١١) الجنى الداني / ١٨٦ .
(١٢) الجنى الداني / ١٨٦ .
(١٣) الجنى الداني / ١٨٦ .
(١٤) انظر ديوان الهذليين ١/٦٨.
(١٥) الخزانة ٣ / ١٤٩ .
(١٦) غافر / ٧١ .
(١٧) البقرة / ١٢٧ .
(١٨) المعارج / ١١ .
(١٩) الخزانة ٤ / ١٤٩ .
(٢٠) الجنى الداني ١٨٦/١٨٧.
(٢١) الخزانة ٣ / ١٤٨ .
(٢٢) المعارج / ١١ .
(٢٣) تفسير الفخر الرازي ٣٠/١٢٦ .
(٢٤) البحر المحيط ٨/٣٣٤.
(٢٥) انظر الخزانة ٣/١٤٩.
(٢٦) انظر الخزانة ٣/١٤٨.
(٢٧) انظر الخزانة ٣/١٤٨ .

(٢٨) الهمع ٢ / ١٧٢ .
(٢٩) آل عمران / ١٦٤ .
(٣٠) لم ينسب أبو حيّان في البحر المحيط القراءة ٢/ ١٠٣ إلى قارىء معّين.
(٣١) انظر تفسير الكشاف ١/٤٧٧ ، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن / ٥٧٧ .
(٣٢) حاشية الصبان ١ / ٢١٨.
(٣٣) المغنى ١ / ٨٦ .
(٣٤) سيبويه ٤/٢٢٩.
(٣٥) سيبويه ٤ / ١١٦ .
(٣٦) التوبة / ٤٠ .
(٣٧) آل عمران / ٨ .
(٣٨) الزلزال / ٤.
(٣٩) الواقعة ٨٤، وانظر معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/٥٧٦.
(٤٠) الأعراف / ٨٦.
(٤١) الأنفال / ٢٦ .
(٤٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤ / ٢٠٧.
(٤٣) البقرة / ٣٠ .
(٤٤) البقرة / ٣٤ .
(٤٥) البقرة / ٥٠ .
(٤٦) المغنى ١ / ٨٥ .
(٤٧) الكليات لأ بى البقاء ١/٩٤.
(٤٨) مريم / ١٦، وانظر المغنى ١ / ٨٥.
(٤٩) البقرة / ٢١٧ .
(٥٠) المائدة / ٢٠ .
(٥١) المغنى ١ / ٨٥ .
(٥٢) يونس / ٦١، وانظر : معترك الأقران / ٥٧٨ .
(٥٣) آل عمران / ٣٥ .
(٥٤) مجمع البيان ١ / ٤٣٤ .
(٥٥) آل عمران ٤٢ .
(٥٦) مجمع البيان ١ / ٤٤٠ .
(٥٧) آل عمران / ٤٤ .
(٥٨) مجمع البيان ١ / ٤٤١.
(٥٩) آل عمران / ٥٥ .

(٦٠) آل عمران / ٥٤ .
(٦١) مجمع البيان ١ / ٤٤٩ .
(٦٢) آل عمران / ١٢١ .
(٦٣) مجمع البيان ١ / ٤٩٥ .
(٦٤) آل عمران / ١٥٣ .
(٦٥) مجمع البيان ١ / ٥٢١ .
(٦٦) مريم ١٦ .
(٦٧) مريم ٤١ ، ٤٢ ، وانظر البرهان ٤ / ٢٠٨ .
(٦٨) مريم / ١٦ .
(٦٩) الزخرف / ٣٩.
(٧٠) معترك الأقران في إعجاز القرآن ٥٧٩/١.
(٧١) انظر سيبويه ٢٢٩/٤.
(٧٢) سيبويه ٣ / ١١٩ .
(٧٣) سيبويه ٣ / ١١٩ .
(٧٤) غافر / ٦٩، ٧٠ .
(٧٥) الجنى الداني / ١٨٨ .
(٧٦) الزلزلة / ٤ .
(٧٧) انظر المغنى ١ / ٨٦.
(٧٨) الكهف / ٩٩ وغيرها .
(٧٩) المغنى ١ / ٨٦ .
(٨٠) انظر الجنى الداني / ١٨٨ .
(٨١) سيبويه ٣ / ١١٦ .
(٨٢) الأنفال / ٢٦ .
(٨٣) البقرة / ٣٠
(٨٤) البقرة / ١٢٤
(٨٥) الأحزاب / ٣٧ .
(٨٦) التوبه / ٤٠، وانظر معترك الأقران ١ / ٥٧٧.
(٨٧) المغنى ١ / ٨٩ .
(٨٨) انظر نوادر أبي زيد / ٤٩٤، وابن الشجرى ١٩٨/٢، وهمع الهوامع رقم ٧٩٥ وحاشية يس ٣٩/٢، وقائله الأعلم بن جرادة السعدى أو عبدالله بن المعتز، وانظر معجم الشواهد ص ٣٨١.
(٨٩) من شواهد ابن الشجرى ١ / ٢٠٠ .
(٩٠) ديوان الخنساء / ٤٧ من قصيدة مطلعها:

تعرّقني الدهر نهشاً وحزاً وأوجعني الدهر قرعاً وغمزا

النهس: أخذ اللحم بمقدم الأسنان كما في القاموس.

(٩١) المغنى ١ / ٩٠ بتصرّف.

(٩٢) شرح المفصل لابن يعيش ٤ / ٩٦ .

(٩٣) الزخرف / ٣٩ .

(٩٤) انظر : معترك الأقران ١/٥٧٨.

(٩٥) معترك الأقران ١ / ٥٧٨.

(٩٦) معترك الأقران ١ / ٥٧٨.

(٩٧) التعريفات / ٣٢ .

(٩٨) المغنى ١ / ٨١ .

(٩٩) معترك الأقران ١ / ٥٧٨.

(١٠٠) تفسير الكشاف للزمخشري ٣/٢٥٢، ٢٥٣ طبع دار الكتاب العربي بيروت .

(١٠١) انظر شواهد الكشاف لمحب الدين افندى، وتفسير الكشاف ٤/٣٨٠.

(١٠٢) المائدة / ١١٦ .

(١٠٣) شرح شذور الذهب وهامشه ٣٠٣.

(١٠٤) الأحقاف / ١١ .

(١٠٥) الكهف ١٦ .

(١٠٦) ديوان الفرزوق ١ / ١٨٥.

(١٠٧) ديوان الأعشى ١٧١.

(١٠٨) المغنى ١ / ٨٧.

(١٠٩) الخزانة ٢ / ١٣١ .

(١١٠) تفسير الفخر الرازى ١١/٢٨ .

(١١١) إعراب القرآن العكبرى ٢ / ٩٩.

(١١٢) اعراب القرآن العكبرى ٢ / ٩٩.

(١١٣) ديوان المتنبى ١ / ١٤٠ .

(١١٤) المغنى ١ / ٩١.

(١١٥) سيبويه ٤ / ٢٣٢ .

(١١٦) سيبويه ٤ / ٢٣٢ .

(١١٧) شرح الرضى على الكافية ٢ / ١١٤ .

(١١٨) انظر الهمع ٣ / ١٧٦، وشرح الرضى ٢ / ١١٤ .

(١١٩) انظر شرح الرّضى ٢ / ١١٤ .

(١٢٠) شرح الرضى ٢ / ١١٤ .

(١٢١) انظر الهمع ٣ / ١٧٦ .
(١٢٢) الهمع ٣ / ١٧٦.
(١٢٣) الهمع ٣ / ١٧٧ .
(١٢٤) هذا الشاهد من شواهد: الخصائص ٣ / ١٢٢، وابن يعيش ٣٤/٤، والخزانة ١٨٣/٣، والمغنى رقم ٦٩٨، ٩٢٢ والهمع رقم ٨٢٧ والمفضليات/ ٨٧٩.
ومعنى تعشقه : الأخذ بالعنق، والاعتناق : آخر مراتب الحرب، لأن أول الحرب: الترامي بالسهام، ثم المطاعنة بالرماح، ثم المجالدة بالسيوف ثم الاعتناق، وهو أن يتخاطف الفارسان، فيتساقطا الى الأرض معاً. و : الكماة : جمع كميّ هو : الشجاع .
وروغة : حيدته عن الأقران يميناً وشمالاً للتحفظ ، والسلفع: كجَعْفَر: الجريء الواسع الصدر، و يقال للمرأة اذا كانت جريئة: سلفع بغير هاء.
ومعنى البيت : أن هذا المستشعر الدرع حزماً وقت معانقته للأ بطال ومراوغته للشجعان قدر له رجل هكذا، وقيض له فارس شجاع مثله فاقتتلا حتى قتل كل واحد منهما صاحبه: ومراده أن الشجاع لا تعصمه جراءته من الهلاك. انظر الخزانة ١٨٤/٣، ١٨٥.
(١٢٥) صدره :

* استقدر الله خيراً وارضَيَنَّ به *

من شواهد سيبويه ٢ / ١٥٨، وابن الشّجريّ ٢ / ٢٠٧، ٢٠٩، والمغنى رقم ١٣٠، ونسب في معجم الشواهد لعثمان بن لبيد العذريّ.
(١٢٦) الحجر / ٢
(١٢٧) هود / ٧٧ .
(١٢٨) درة الغواص ٦٣، ٦٤، ٦٥.
(١٢٩) سيبويه ٤ / ٢٣٢ .
(١٣٠) الخزانة ٣ / ١٨٣.
(١٣١) لجميل بثينة، الديوان / ١٨٨ من شواهد المغنى رقم ٥٨٥ .
(١٣٢) سبق ذكره هامش رقم ١٢٥ .
(١٣٣) انظر اللسان «بين» وغيساته : شبابه
(١٣٤) انظر اللسان (بين) وديوان القطامى / ٧٣.
وطامح : رافع، أضجم : معوج ـــ الختر: الغدر وعمير هو القطامى نفسه .
(١٣٥) اللسان : «بين» .
(١٣٦) انظر : اللسان : «بين».
(١٣٧) انظر الخزانة ٣ / ١٨٣ .
(١٣٨) الخزانة ٣ / ١٨٣.
(١٣٩) انظر الخزانة ٣ / ١٨٣ .
(١٤٠) الخزانة ٣ / ١٨٣ .

(١٤١) شرح الرّضى ٢ / ١١٣
(١٤٢) شرح الرضى ٢ / ١١٣
(١٤٣) شرح الرّضى ٢ / ١١٣ .
(١٤٤) أبو عمرو المشار اليه في النصّ توفى سنة ١٥٤هـ على حين ولد المبرد سنة ٢١٠هـ أى بعد وفاة أبى عمرو بست وخمسين سنة، وليس هو أباعمرو الشيبانى الذي توفي سنة ٢٠٥ أو ٢٠٦، ٢١٣هـ . واذا اعتبرنا وفاة أبي عمرو الشيبانى في ٢١٣ هـ تكون ولادة المبرد قبل وفاته بثلاث سنوات، ففى عبارة اللسان خطأ واضح.

انظر في ترجمة المبرد، وأبى عمر بن العلاء، وأبى عمرو الشيبانى: بغية الوعاة .

(١٤٥) اللسان : «بين» .
(١٤٦) اللسان : «بين» .
(١٤٧) اللسان : «بين» .
(١٤٨) درّة الغواص / ٦٤ .
(١٤٩) سورة الحجر / ٢
(١٥٠) سورة هود / ٧٧ .
(١٥١) درة الغواص / ٦٥ .
(١٥٢) آل عمران / ٣٥ .
(١٥٣) تفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٤ .
(١٥٤) البقرة / ٣٠ .
(١٥٥) تفسير الطبرى ١ / ١٥٣ .
(١٥٦) البغية ٢ / ٢٩٤، ٢٩٥.
(١٥٧) البغية ٢ / ٢٩٤ .
(١٥٨) البغية ٢ / ٢٩٥.
(١٥٩) البغية ٢ / ٢٩٥.
(١٦٠) تفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٤ .
(١٦١) تفسير الطبرى ١ / ١٥٤ .
(١٦٢) تفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٤ .
(١٦٣) تفسير الفخرالرازى ٨ / ٢٤ .
(١٦٤) تفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٤ .
(١٦٥) الفخر الرازى ٨ / ٢٤ .
(١٦٦) تفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٤ / ٢٥ .
(١٦٧) تفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٥ .
(١٦٨) البقرة / ٢٨ .

(١٦٩) من شواهد : اللسان : نشغ.
والشعيليات، و بيدان: موضعان كما في القاموس، والناجية الذمول: الناقة السريعة، والنواشغ، مجارى الماء في الوادى والبيتان من شعر المرار بن سعيد.
(١٧٠) تفسير الطبرى ١ / ١٥٤ ، ١٥٥.
(١٧١) البقرة / ٤٩ .
(١٧٢) البقرة / ٤٧.
(١٧٣) تفسير القرطبى ١ / ٣٨١ .
(١٧٤) البقرة / ٥٠
(١٧٥) البقرة / ٥١ .
(١٧٦) البقرة / ٦٠ .
(١٧٧) البقرة / ٣٠ .
(١٧٨) هكذا في القرطبى، وإذْ ، والصواب «إذا» كما هو في الطبرى حيث تقوم إذا مقام إذ ولو كانت الرواية بـ «إذْ كما هو في القرطبى لا تكسر وزن البيت . وانظر الطبرى ١ / ١٥٤.
وقد فسّر الطبرى المراد بهذا البيت حينما قال: «فإذا الذي نحن فيه ومامضى من عيشنا وأشار بقوله ذلك إلى ماتقدم وصفه من عيشه الذى كان فيه لامهاه لذكره يعنى: لاطعم له ولافضل.
ومما يجدر ذكره أن القرطبى فيه تحريف آخر حيث جعل الهاء تاء في «لامهاة» والصواب: لامهاه، فالهاء أصلية، ففى اللسان: «مهه»: وكل شيء مهه، ومهاه، ومهاهة ماالنساء َوذكرَهُنّ أى كل شيء يسير حسن إلا النساء أى إلا ذكر النساء.
وهذا الشاهد رواه اللسان: «لامهاه» بالهاء.
(١٧٩) البقرة / ٢١ .
(١٨٠) تفسير القرطبى ١ / ٢٦٢ .
(١٨١) الأعراف / ٦٩ .
(١٨٢) الأعراف / ٨٦ .
(١٨٣) الأنفال / ٢٦ .
(١٨٤) مريم / ١٦ .
(١٨٥) الأحزاب ٩ .
(١٨٦) المائدة / ١١٠ .
(١٨٧) المائدة / ١١٢
(١٨٨) الفتح / ٢٦ .
(١٨٩) الكليات ١ / ٩٤ .
(١٩٠) البقرة / ١٣٧ .
(١٩١) البقرة / ١٩٥ .
(١٩٢) يونس / ٢٧ .

(١٩٣) الشورى / ٤٠ .
(١٩٤) النساء ٧٩، ١٦٦ .
(١٩٥) النساء ٦ ، والأحزاب ٣٩ .
(١٩٦) النساء / ٥٥ .
(١٩٧) مريم / ٣٨.
(١٩٨) انظر إعراب القرآن، القسم الثاني ٦٦٧ — ٦٧٠.
(١٩٩) الأعراف / ١٧٢ .
(٢٠٠) البقرة / ٩٦.
(٢٠١) البقرة/ ٨
(٢٠٢) مريم / ٢٥ .
(٢٠٣) المؤمنون / ٢٠ .
(٢٠٤) القلم / ٦
(٢٠٥) العلق / ١٤
(٢٠٦) النور / ٢٥ .
(٢٠٧) العلق / ١ .
(٢٠٨) القيامة / ١٨، وانظر إعراب القرآن للزجاج ٢ / ٦٦٧ — ٦٧٢.
(٢٠٩) الأعراف / ٥٩، ٦٥، ٧٣، ١٨٥، هود/ ٥٠، ٦١، ٨٤.
(٢١٠) فاطر ٣ .
(٢١١) آل عمران / ٦٢ .
(٢١٢) المائدة / ٧٣ .
(٢١٣) المائدة / ٨٨.
(٢١٤) المائدة / ٤، وانظر إعراب القرآن للزجاج ٢/٦٧٣ — ٦٧٤.
(٢١٥) الأعراف / ١٥٤ .
(٢١٦) يوسف / ٤٣ .
(٢١٧) النمل / ٧٢.
(٢١٨) الحج/ ٢٦. وانظر إعراب القرآن للزجاج ٢/٦٧٤.
(٢١٩) الأنبياء / ٩٦.
(٢٢٠) الأنبياء / ٩٧ .
(٢٢١) وانظر اعراب القرآن للعكبري ٢/ ١٣٧.
(٢٢٢) الصافات/ ١٠٣.
(٢٢٣) الانشقاق / ١ .
(٢٢٤) انظر إعراب القرآن للزجاج ٢/ ٦٧٤.

(٢٢٥) الفاتحة / ٧ .
(٢٢٦) فاطر / ٢٢ .
(٢٢٧) الأنعام / ١٠٩ .
(٢٢٨) الأنبياء / ٩٥.
(٢٢٩) الحديد/ ٢٩ .
(٢٣٠) الأعراف / ١٢ .
(٢٣١) انظر إعراب القرآن ١ / ١٣١ ـــ ١٣٢.
(٢٣٢) آل عمران / ١٥٩ .
(٢٣٣) النساء / ١٥٥.
(٢٣٤) المائدة/ ١٣ .
(٢٣٥) المؤمنون / ٤٠ .
(٢٣٦) صَ / ١١ .
(٢٣٧) انظر إعراب القرآن / ١٣٨،١٣٧.
(٢٣٨) انظر إعراب القرآن / ١٣٤ .
(٢٣٩) الحديد / ٢٩ .
(٢٤٠) تفسير القرطبي ٣٦٨،٣٦٧/١٧.
(٢٤١) هامش إعراب القرآن ـــ القسم الأول ١٣٤/١.
(٢٤٢) قائلة هو ساعدة الهذليّ كما في اللسان مادة : «لا».
(٢٤٣) انظر شعرا الأحوص الأنصاري / ١٧٣.
(٢٤٤) الكتاب لسيبويه ٢ / ٣٠٥ هارون وانظر ديوان جرير وهو من شواهد ابن الشجري ١/ ٢٣٩، ٢٣٠/٢، والخزانة ٢ / ٩٤، والهمع رقم ٧٦٥.
(٢٤٥) الدهر / ١ .
(٢٤٦) ابراهيم / ٢٥ .
(٢٤٧) تمامه :

• جزاءك والقروض لها جزاء •

من شواهد : سيبويه ٣ / ٣٠٣ هارون، والخزانة ٣ / ١٠٨ وهو للفرزدق، ديوانه/٩١.

(٢٤٨) انظر ديوان الشماخ/٢١٩، والمجان: كرائم الابل .
(٢٤٩) نسب إلى رجل من الأنصار في كتاب سيبويه ٤٠٨،٤٠٧/٢.
(٢٥٠) انظر إعراب القرآن ١٣٧،١٣٦،١٣٥/١.
(٢٥١) الأشموني ٢ / ١٣٢.
(٢٥٢) الأعراف / ٨٩.
(٢٥٣) آل عمران (٨٠)، وقد كتبت في شرح الرضي: «بعد إذ أنتم مهتدون» تحريف .
(٢٥٤) شرح الرضي على الكافية ٢ / ١١٥ .

(٢٥٥) وانظر الأشموني ٢/٣٢.
(٢٥٦) سيبويه ٣ / ٧٥.
(٢٥٧) سيبويه ٣ / ٧٦.
(٢٥٨) سيبويه ٣ / ٧٥.
(٢٥٩) الخصائص ١/٣٥٢.
(٢٦٠) البقرة / ٢٣ .
(٢٦١) البقرة / ٢٧٨.
(٢٦٢) المائدة / ٥٧ .
(٢٦٣) آل عمران / ١٣٩ .
(٢٦٤) الفتح / ٢٧ .
(٢٦٥) هامش الإنصاف ٢/٦٣٣،٦٣٤.
(٢٦٦) انظر الإنصاف ٢ / ٦٣٤.
(٢٦٧) انظر الإنصاف ٢ / ٦٣٥.
(٢٦٨) لخص هذا النقاش بين البصريين والكوفيين من كتاب الإنصاف المسألة ٨٨ بتصرف.
(٢٦٩) المائدة ٤٨ وغيرها.
(٢٧٠) البقرة / ٢١ وغيرها.
(٢٧١) البقرة / ٩١ وغيرها.
(٢٧٢) البقرة / ٢٣ وانظر شرح الرّضى ٢ / ٢٥٣.
(٢٧٣) انظر المغنى ٣١ / ٢٣.
(٢٧٤) انظر التعريفات لابن السيد / ٦٨.
(٢٧٥) الزخرف / ٥ .
(٢٧٦) انظر ديوان الفرزدق ٢/٣١١، ومن شواهد الهمع رقم ١٠٤٦.
(٢٧٧) تفسير الطبرى ٢٥/٣١.
(٢٧٨) البحر المحيط ٨/٦.
(٢٧٩) انظر الخزانة ٣/٦٥٥.
(٢٨٠) سيبويه ٣ / ١٦١، ١٦٢ هارون .
(٢٨١) من شواهد شرح شذور الذهب / ٢٥٧.
(٢٨٢) التوبة / ٦ .
(٢٨٣) الخزانة ٣ / ٦٥٦ .
(٢٨٤) من شواهد الهمع رقم ٣١٦، ١٠٦٦، وقائله : ثابت قطنة .
(٢٨٥) انظر الخزانة ٣ / ٦٥٦.
(٢٨٦) انظر المغنى ١ / ٢٣ .
(٢٨٧) الخزانة ٣ / ٦٥٦.

(٢٨٨) الخزانة ٣ / ٦٥٦.
(٢٨٩) البقرة / ٢٧٨ .
(٢٩٠) تفسير الفخر الرازى ١٩٤/١٨.
(٢٩١) تفسير القرطبيّ ٦٢،١٦، ٦٣.
(٢٩٢) القيامة / ٣٦ .
(٢٩٣) تفسير الطبرسي ٣٩،٣٨،٩.
(٢٩٤) الحج / ٥ .
(٢٩٥) الأعراف / ٨٨ .
(٢٩٦) الأعراف / ٨٩.
(٢٩٧) التحريم / ١٢ .
(٢٩٨) البقرة / ٣٤ .
(٢٩٩) النور / ٣٣ .
(٣٠٠) الايضاح للقزويني / ٥٥ / ٥٦ .
(٣٠١) سيبويه ٣ / ٥٧.
(٣٠٢) المقتضب ٢٧/٢، الخصائص ١٣١/١، وابن يعيش ٤٦/٧، والخزانة ٦٣٦/٣ والشاهد من قصيدة للعباس بن مرادس الصحابّي قالها في غزوة حنين يخاطب بها النبيّ صلى الله عليه وسلم، و يذكر بلاءه وإقدامه مع قومه في تلك الغزوة، و بعد :

يا خير من ركب المطيّ ومن مشي   فوق التراب إذا تعدّ الأنفس

(٣٠٣) من شواهد ابن الشجرى ٢٤٥/٢، وابن يعيش ٩،٣٧/٧/ ٦، ٧ والخزانة ٦٣٨/٣.
وتريننى مجزوم بإذما بحذف النون، والأصل: تريننني، فحذفت الأولى للجزم، والثانية نون الوقاية، والياء ضمير المتكلم وجزاء الشرط هو البيت الثاني، لأن جملة: «إني من قوام سواكم» في محل جزم جزاء الشرط، والفاء للربط .
والأزجاء : السَّوْق، يقال: أزجيت الابل: اذا سقتها، ورواية سيبويه: مُزْجىً ظعينتي: اسم مفعول، «وظعينتي» نائب فاعل والظعينة: المرأة مادامت في الهودج، والمطيّة : البعير.
وأصعد : أنحدر، فيقال : صعّد في الوادي : انحدر فيه.
وأفرع : مقابل لـ «أصعد» يقال: فرعت الجبل : أى صعدته.
وسهم، وأشجع : قبيلتان.
(٣٠٤) سيبويه ٣ / ٥٧، ٥٨.
(٣٠٥) يونس / ١٠٨ .
(٣٠٦) الأنفال / ٦.
(٣٠٧) شرح الرّضى ٢٥٣/٢.
(٣٠٨) شرح الرّضى ٢٥٣/٢.

(٣٠٩) الأزهية، ٩٨، وانظر ابن الشجري ٢/٢٤٥.

(٣١٠) مريم / ٢٦.

(٣١١) شرح الرضى ٢ / ٢٥٤.

(٣١٢) الإبدال والمعاقبة والنظائر / ٤٧ .

(٣١٣) الإبدال والمعاقبة والنظائر / ٩٨.

يقال : عشمت يده وعثلت تعثل: إذا انجبرت على غير استواء. انظر هامش الإبدال والمعاقبة .

(٣١٤) الإبدال والمعاقبة / ٩٩.

(٣١٥) شرح الرّضي ٢/٢٥٤. يريد البيت السابق وهو إذما أتيت على الرسول برواية أخرى.

(٣١٦) المقتضب ٢/٤٧.

(٣١٧) شرح الرّضى ٢/٢٥٤.

(٣١٨) هامس الرّضى ٢/٢٥٤ (زيادة في نسخة أخرى من شرح الرضى) .

(٣١٩) شرح الرضى ٢ / ٢٥٤ .

(٣٢٠) انظر سيبويه ٣ / ٥٦، ٥٧، وابن يعيش ٤٦/٧ والخزانة ٣ / ٦٣٦.

المصادر والمراجع

١ ـــ الأحوص الأنصارى ـــ شعر الأحوص ، تحقيق د / إبراهيم السامرائى ، مكتبة الأندلس ببغداد .

٢ ـــ الأشمونى (نور الدين أبو الحسن على بن محمد) مطبعة الحلبى ـــ القاهرة .

٣ ـــ الأنبارى (محمد بن القاسم بن محمد بن بشار) شرح المفضليات طبع أوفست مكتبة المثنى ببغداد .

٤ ـــ ابن الأنبارى (كمال الدين أبو البركات عبدالرحمن بن محمد) الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيى الدين ـــ مطبعة محمد على صبيح ـــ القاهرة .

٥ ـــ البغدادىّ (عبدالقادر بن عمر) ـــ خزانة الأدب ـــ دار صادر بيروت

٦ ـــ أبو البقاء (أيوب بن موسى الحسينى اللغوى) الكليات ـــ طبع وزارة الثقافة والارشاد القومى بسوريا بتحقيق عدنان درويش ـــ ومحمد المصرى.

٧ ـــ الجرجانى (أبو الحسن علىّ بن محمد بن على) التعريفات ـــ الدار التونسية للنشر

٨ ـــ جميل بن معمر ديوان جميل بثينة، تحقيق الدكتور حسين نصار ـــ مكتبة مصر بالفجالة

٩ ـــ ابن جنى (أبو الفتح عثمان) ـــ الخصائص، تحقيق الأستاذ محمد على النجار دار الهدى للطباعة ـــ بيروت .

١٠ ـــ الحريرىّ (أبو محمد القاسم بن على) درّة الغوّاص. طبع بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

١١ ـــ أبو حيّان (محمد بن يوسف بن على الأندلسى) ـــ البحر المحيط . مطابع النصر الحديثة بالرياض.

١٢ ـــ الخنساء ـــ شرح ديوان الخنساء ـــ دار التراث ببيروت .

١٣ ـــ رضي الدين (محمد بن الحسن الاستراباذى) شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب ـــ دار الكتب العلمية ببيروت .

١٤ ـــ الزجاج (أبو إسحاق ابراهيم بن السّرى بن سهل) ـــ إعراب القرآن المنسوب إليه ـــ تحقيق ابراهيم الأ بيارى ـــ طبع المؤسسة المصرية.

١٥ ـــ الزجاجيّ (أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق) تحقيق عزالدين التنوخى ـــ طبع دمشق ١٩٦٢ من مطبوعات المجمع العلمى العربي بدمشق

١٦ ـــ الزركشي (بدر الدين بن محمد بن عبدالله) البرهان في علوم القرآن مطبعة الحلبيّ بالقاهرة طبعة أولى .

١٧ ـــ الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة ـــ بيروت، ودار الكتاب العربي ـــ بيروت .

١٨ ـــ أبو زيد (سعيد بن اوس بن ثابت الأنصارى) النوادر في اللغة طبعة أولى ـــ دار الشروق، بتحقيق د / محمد عبدالقادر احمد .

١٩ ـــ سيبويه (أبوبشر عمرو بن عثمان بن قنْبر) الكتاب : تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون. المؤسسة المصرية.

٢٠ ـــ السيوطيّ (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، بتحقيق محمد أبى الفضل ـــ مطبعة الحلبى.

٢١ ـــ السيوطيّ (جلال الدين عبدالرحمن بن بكر) معترك الأقران في اعجاز القرآن بتحقيق الأستاذ محمد على البجاوى ـــ دار الفكر العربّي.

٢٢ ـــ السيوطيّ (همع الهوامع على شرح جمع الجوامع)، بتحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون و د / عبدالعال سالم مكرم نشر دار البحوث العلمية بالكويت .

٢٣ ـــ ابن الشجرىّ (هبة الله بن علي حمزة(الأمالي الشجرية) ـــ دار المعرفة بيروت .

٢٤ ـــ الشماخ (ابن ضرار الذبيانى) ديوان الشماخ، تحقيق صلاح الدين الهادى دار المعارف.

٢٥ ـــ الصّبان (محمد بن علي) ـــ حاشية الصّبان على الأشموني ـــ مطبعة الحلبى بالقاهرة.

٢٦ ـــ الطبرسى : (أبو على الفضل بن الحسن) مجمع البيان في تفسير القرآن دار صعب ـــ بيروت .

٢٧ ـــ الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير) تفسير الطبرى ـــ دار المعرفة ـــ بيروت .

٢٨ ـــ العكبرى : (أبو البقاء) إعراب القرآن . مطبعة الحلبى .

٢٩ ـــ الفخر الرازى (أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين القرشي) التفسير الكبير طبعة ثانية ـــ دار الكتب العلمية بطهران .

٣٠ ـــ الفرزدق (همام بن غالب بن صعصعة) ديوان الفرزدق دار صادر ـــ بيروت

٣١ ـــ الفيروز اباذى (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى) القاموس المحيط طبعة رابعة ـــ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٣٢ ـــ القرطبى (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى) الجامع لأحكام القرآن دار إحياء التراث العربى ـــ بيروت .

٣٣ ـــ القزوينى (جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين عبدالرحمن) الايضاح ـــ مطبعة محمد على صبيح ـــ القاهرة

٣٤ ـــ القطامى (ديوان القطامى) بتحقيق د / إبراهيم السامرائى، ود / أحمد مطلوب دار الثقافة ـــ بيروت .

٣٥ ـــ المالقى (احمد بن عبدالنور) رصف المبانى في شرح حروف المعانى بتحقيق الأستاذ أحمد محمد الخراط . نشر مجمع اللغة العربية بدمشق .

٣٦ ـــ المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) المقتضب، بتحقيق محمد عبدالخالق عضيمة طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة .

٣٧ ـــ المتنبى (احمد بن الحسين) شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ـــ دار الكتاب العربى ـــ بيروت .

٣٨ ـــ محب الدين افندى (شرح شواهد الكشاف) ـــ دار المعرفة ـــ بيروت

٣٩ ـــ المرادى : (أحمد بن قاسم) ـــ الجنى الدانى، بتحقيق د / فخر الدين قباوة والاستاذ محمد نديم فاضل ـــ المكتبة العربية بحلب

٤٠ ــ ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرّم الأنصارى) المؤسسة المصرية

٤١ ــ هارون (الاستاذ عبدالسلام محمد هارون) ــ معجم شواهد العربية طبعة اولى نشر الخانجى.

٤٢ ــ الهذليون (ديوان الهذليين) ــ الدار القومية ــ بمصر .

٤٣ ــ الهروىّ (على بن محمد) تحقيق الأستاذ عبدالمعين الملوحى مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

٤٤ ــ ابن هشام (جمال الدين بن هشام الأنصارى) شرح شذور الذهب تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين ــ مطبعة مصطفى محمد .

٤٥ ــ ابن هشام (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب تحقيق د / مازن المبارك والأستاذ محمد على حمد الله ــ دار الفكر ــ بيروت .

٤٦ ــ يس (ابن زين الدين العليمى) حاشية يس ــ طبع الحلبى.

٤٧ ــ ابن يعيش (موفق الدين بن علىّ) شرح المفصّل ــ عالم الكتب ــ بيروت

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٢٩٥٥٠١ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً : سوشركو